حسين فوزى

سندباد عصرى
يعود إلى الهند





دار المعارف

سندباد عصري

يعود إلى الهند

سندباد عصرى

يعود إلى الهند

أن نقيم دولة عادلة

بوسائل عادلة

جوهرلال نهرو

تأليف

دكتور حسين فوزى



دار المعارف

تصميم الغلاف : **إسماعيل دياب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

عرض وإيضاح

لاحظت وأنا أستعرض رحلتى الشباب والشيخوخة أننى لم أشر فى كتابتى عنهما بطريقة مباشرة إلى الظروف والوسائل التى حققت لى مشاهدة مدن كراتشى (ميناء باكستان حالا) وبومباى ، ومدراس (عام ١٩٣٣) ، ونيودلهى وأجرا وبنارس ، ثم بومباى مرة أخرى وأورانجباد (عام ١٩٧٠) . وإذا كان واضحاً للقارئ اليوم أن « بعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى » على سفينة البحوث العلمية المصرية « مباحث » هى التى حققت لى رحلة الشباب إلى الهند ، وبلاد أخرى حول البحر العربى والمحيط الهندى ، فإن كتاب « سندباد عصرى » أول كتبى ، الصادر عام ١٩٣٨ تجنب ذكر اسم البعثة ، بل واسم السفينة « مباحث » ، بسبب عهد بيننا وبين البعثة البريطانية ، أن لا ننشر شيئاً عن تلك البعثة قبل مضى خمس سنوات على ختامها . ثم نشرت وزارة التجارة والصناعة التى كان يتبعها معهد الأحياء المائية بقايد باى حينذاك تقريرى الرسمى عن رحلة « مباحث » ، باعتبارى المندوب المصرى المسئول عن الرحلة فيما يختص بالمصريين وبالسفينة المعارة للبعثة البريطانية ، بالإضافة إلى ما عهد إلى رئيس البعثة ، الكولونل سيمورسيويل ، من تولى المسئولية الطبية عن ركابها الأربعين من المصريين والضيوف البريطانيين . وقد ورد فى ذلك التقرير كافة التفاصيل الخاصة بالبعثة ، وظروف إعارة السفينة العلمية المصرية إلى البعثة الأجنبية .

كتاب « سندباد عصرى » يسجل بعض انطباعات مؤلفه من مشاهداته على ظهر السفينة « مباحث » فى عرض البحر ، وفى المرافئ والجونات التى رابطت بها : بريم عند مدخل باب المندب ، وعدن ، وجزر خورياموريا ، ومسقط (عاصمة عمان) ، وكراتشى ميناء السند ، وممباسا ، ميناء كينيا ، وجزيرتى زنجبار وبمبا ، وبورت فكتوريا بجزائر سيشيل ، وبومباى ، وكولومبو (عاصمة جمهورية شرى لانكا حالاً ، وسيلان

سابقاً) ، وأرخبيلى المحلديب واللكاديب .

أما مدراس ، حاضرة مدراس بريزيدانسى فى الهند البريطانية ، (وعاصمة ولاية مدراس بجمهورية الهند حالا) فقد سافرت إليها من كولومبو عندما رست «مباحث» فى مينائها الكبير لإجراء عمليات التنظيف والإصلاح لمدة شهر ، كان بعضه أجازة لطاقم السفينة ، وأعضاء البعثة العلمية . قضيت أسبوعاً من تلك الأجازة بمدينة كاندى (منفى أحمد عرابى باشا وصحبه) ، ثم سافرت إلى الهند ماراً بالمدينة الأثرية «أنورادابورا» ، ونزلت ضيفاً على زميلى الدكتور سوندرا راج ، مدير أبحاث مصايد مدراس ، حاضرت طلبته بجامعة مدراس عن أعمال بعثتنا البريطانية – المصرية . ثم نظم لى رحلة نهرية إلى ماهابالى بورام فى الجنوب . وواصلنا الرحلة بالقطار إلى مادورا (مادوراى الآن) لزيارة معابدها المشهورة ، ومنها يممّنا جنوباً حتى مقربة من رأس كومورينَ وعبرنا ذراعاً من البحر إلى جزيرة كروشيدى لقضاء ليلة بمعهد الأبحاث البحرية التابع لمصلحة مصايد مدراس . وعدنا إلى القارة لزيارة معبد راميشفارام ، خاتمة الحجيج الهندوسى الكبير الذى يبدأ من بنارس فى الشمال . ولقد اتضح لى فيما بعد أن مشاهداتى فى الهند اقتصرت فى أغلبها على آثار العصر البوذى والهندوسى بمتحف مدراس ، وعلى معابد الجنوب التى تمثل غاية الفن الدرافيدى فى الإقليم الذى يتكلم أهله باللغة التاميلية . كما اقتصرت فى الهند الوسطى على بومباى ، حيث شاهدت أبراج السكون (جبانة المجوس) ، ومعبد جزيرة اليفانتا . أى أننى لم أر فى رحلة الشباب سوى النزر اليسير من الفن الإسلامى بمدينة كراتشى ، فى الشمال الغربى .

أما رحلة الشيخوخة فقد جاءت عقب اختيارى لرياسة وفد مصر إلى مؤتمر الكتاب الأفروأسيويين فى نيودلهى ، وكان الأخ الشهيد يوسف السباعى أمين عام ذلك المؤتمر ، هو الذى اختارنى لتلك المهمة . وقد طرت إلى نيودلهى من مدينة لوفان ببلجيكا ، حيث دعيت إلى ندوة ثقافية اجتماعية نظمتها الجامعة الكاثوليكية القديمة للتدارس فى حاضر العروبة ومستقبلها . وكان من اليسير أن أطير من باريس إلى نيودلهى بالطريق الشمالى ، لولم يكن مفروضاً علينا فى ذلك الوقت الالتزام بركوب الطائرات المصرية . مما أضطرنى إلى الطيران من باريس إلى القاهرة والمبيت بالمطار ، فاستئناف السفر فى الصباح الباكر

إلى بومباى عبر إمارات الخليج . ومن بومباى ركبت الطائرة الهندية إلى نيودلهى .

أسجل كل هذه التفاصيل لأوضح ظروف لقائى بالهند فى رحلة الشيخوخة . كانت ظروف عملى بالمؤتمر ، تستغرق اليوم كله ، وبعض الليل . وبمجرد انتهاء أعماله ، سافرت إلى أجرا لزيارة آثار الفن الإسلامى فى دولة المغول . ثم عدت إلى دلهى ومنها ركبت الطائرة إلى بنارس [فاراناس] قدس أقداس الهندوس . فضاحية صارنات لمشاهدة آثار البوذا والبوذية . وعدت إلى نيودلهى فزرت متحفها الكبير (متاحف الهند الكبرى ثلاثة : نيودلهى ، وكلكتا ، ومدراس) . . ثم تفرغت لزيارة الآثار الإسلامية بدلهى القديمة : مدفن السلطان همايون ، وآثار سلاطين الأفغان (الباتان) وأهمها بقايا جامع «قوة الإسلام» ومأذنته المسماة «قطب منار» والحصن الأحمر المحتوى على قصر السلطان شاه جاهان ، ومسجد الجمعة الكبير ، وهو ، مع مسجد أجرا ، أهم وأعظم مساجد الهند .

ومن دلهى سافرت إلى الهند الوسطى ، ونزلت بمدينة أورانجباد لأكون على مقربة معقولة من آثار كهوف إيللورا وأجانتا . وختمت الرحلة فى بومباى ومنها عدت إلى مصر .

وعلى الرغم من هذه الرحلات الخاطفة فى المرتين ، فقد حققت إحاطة لا بأس بها ببعض بلاد الهند . وكان من حظى فى رحلة الشيخوخة مشاهدة العمارة الإسلامية فى دررها الغالية : تاج محل ، فاتح بورسيكرى المدينة الشبح ، والمدينة المتحف التى أنشأها السلطان أكبر لتكون عاصمة إمبراطوريته . وهجرها الناس بعد وفاته فيما يذكرنا بإخلاء المصريين القدامى لعاصمة أخيناتون ، عابد الشمس ، بعد موت منشئها ، عائدين إلى طيبة وعبادة آمون .

ونذكر بمناسبة الفن الإسلامى مأثرة اللوردكيرزون نائب ملك إنجلترا وإمبراطور الهند ، فى المحافظة على مدينة فاتح بورسيكرى وغيرها من الآثار الإسلامية ، علماً بأن اللوردوليم بنتئك ، من حكام الهند البريطانية ، راودته فكرة بيع مقام تاج محل ، إلى مقاول هندوسى مقابل مائة وخمسين ألف دولار (كذا) . مع أن تكاليف بناء هذا الأثر العظيم قدرت بما يساوى ثلاثة وعشرين مليون دولار ، هذا عدا أحجار المرمر التى أهداها مهراجا جيبور إلى شاه جاهان ، واستغرق بناء المدفن البديع إثنين وعشرين عاماً ، على

أيدى اثنين وعشرين ألف عامل .

الهندوستان بلاد شاسعة الأرجاء إلى درجة أنها توصف بشبه القارة . لا يكفى فى مشاهدة آثارها ذلك الخطف المباغت ، وهو ما أتيح لى . بل يتعين على زائرها أن يخصص لها فى الأقل شهراً كاملاً ، بالإضافة إلى محاولة فهم عقائد الهنود : البوذية والهندوسية والجائينية والسيخ . . .

وأعترف بأنى مافتئت أشعر بحاجة شديدة إلى زيارة ثالثة للهند .

د . حسين فوزى

سندباد عصرى يعود إلى الهند

« أن نقيم دولة عادلة ، بوسائل عادلة »
البانديت نهرو

لا يصح لما أكتبه عن جمهورية الهند أن يحمل العنوان المعتاد لرحلاتى « سندباديات طيارى » بمعنى الالتقاط السريع ، والنظرة الخاطفة لرحلة ما ، أكتبها حال جريانها . لأن لى مع الهند حساباً ، وفى رقبتى للهندوسية ديناً يجب أن أصفيه . فقد صورتها فى كتابى « سندباد عصرى » (١٩٣٨) بعد مشاهدات ومطالعات وإمعان تفكير ، وقسوت عليها .

عدت إلى الهند بعد سبعة وثلاثين عاماً – أكثر من نصف عمرى – وقد دارت دورة القدر ، ولمّا يمكن لهذه الصحائف أن تتحرر مما كتبت فى ذلك الزمان البعيد حين نزلت على الهند حتتك بتتك ، إذ لم أرمنها سوى بمباى (وكراتشى التى لم تعد من بلادها) ، ثم صورتها المختلفة فى الجنوب مما كان يعرف فى التقسيم البريطانى باسم « مدارس بريزيدانسى » .

أعجبت بفنها أيما إعجاب فى متحف مدراس العظيم ، وآثار « ماها بالى بورام » المنحوتة فى الصخر ، مثل كهف « اليفانتا » فى بومباى ، وكهوف « أجانتا » و « إيللورا » على مقربة من أورنجاباد ، ودرت مبهوتا فى معبد « مادورا » وحوله . وحتى فى معبد « راميشفارام » خاتمة الحجيج الطويل للهندوس ، وكان مصدراً من مصادر صدامى بالهندوسية . وما إن عبرت إلى سيلان ، حتى استقبلتنى البوذية بسكونها وهدوئها وطيب رائحتها ووجهها الباسم . وكتبت صفحة أعتبرها من أصدق وأجمل ما كتبت فى شبابى ، عن سيدهارتا شاكيامونى ، الملقب « بالبوذا » .

كانت الصدمة التى عرتنى بعد لقائى بديانة الهندوس كما يمارسها الشعب ، مثاراً

للكلمة العنيفة التى صدرت بها كتابى الأول وقد كلفت المرحوم حسنى الخطاط بكتابتها ، ووقعت عليها بقلمى : «درجت على حب الغرب ، والإعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم أدوار التكوين فى أوربا ، فتمكنت أواصر حبى ، وتقوت دعائم إعجابى . فلما ذهبت إلى الشرق عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب . . . إيماناً بكل ما هو غربى .»

واشمأز أنصار «روحانية الشرق» (كذا) ، وتساءلوا : أليست مصر فى الشرق ؟ أجبت بأن مصر ملتقى الشرق والغرب والشمال والجنوب فى جغرافيتها وتاريخها ، وأن مستقبلها فى أن تبقى متفتحة للجهات الأربع ، فهى : إفريقية نيلوسية آسيوية ومتوسطية ، ولا حياة لها إلا أن تبقى واسطة العقد ، فيصلا لمعترك الأطماع . فهى أولى من سويسرا ، ومن النمسا ، بأن ترتفع فوق الحزازات والنعرات بحكم توسطها بين قارات ثلاث ، وبحكم أنها منبت أصيل من منابت الحضارات المتعاقبة حتى الحضارة المعاصرة التى يعيش العالم بخيرها وشرها .

كانت قسوتى على هندوسية الشعب تتسم بعنف الشباب ، لا عذر لى فيه إلا ما دار بخلدى حينذاك فيما ينطبق عليه المثل السائر «إياك أعنى ، واسمعى يا جارة» ، اسمعى يا جارتنا البعيدة ، وإنما أعنيك أنت يا ست الحبايب . كنت فى ذلك الزمان البعيد (١٩٣٥ – ١٩٣٨) أخشى على بلدى من تحركات رجعية تثقل خطاها ، وتعوق مسارها فى فلك التطور العالمى ، وتعزلها عن ركب الحضارة ، والقرن العشرون يغذّ السير إلى منتصفه .

وكان من حظى فى هذه المرة – وقد أدركتنى حكمة الشيخوخة – أن أرى الهند لا فى الجنوب ، ولكن فى قلب الشمال ، وفى حاضرتها العظمى ، دلهى الجديدة ، ووسط مجتمع هندى جديد على . . .

رأيت شعباً رافع الرأس ، وقد رمى بالاستكانة بعيداً ، ونجح فى طرح نير الاستعمار ، وانزاحت عن كواهل الهند آلامه التى كانت مسيطرة على أقدارها منذ زوال دولة المغول .

حاولت أن أتعرف على هذا المجتمع الجديد دون التيه فى تفاصيل نظام الحكم .

بأكثر مما عرفته بالسماع ، ومن الصحف ، وأنا شديد الانتباه إلى أخبار الهند ، لا منذ عرفتها فى زيارتى الأولى (١٩٣٣ – ١٩٣٤) ، ولكن منذ ثورة ١٩١٩ حين كان شعبانا رفيقى جهاد فى سبيل الحرية . وكم سعدت عندما شاركت بين الأربعينات والخمسينات فى مؤتمرات اليونسكو العامة ، وتولى رياسة واحد منها الفيلسوف الهندوسى الكبير سرفيالى راداكريشنان (رئيس جمهورية الهند الأسبق) ، وسمعت مولانا أبا الكلام أزاد ، وزير معارف الهند يلقى خطابه أمام المؤتمر العام فى دورة من أدوار انعقاده .

ساعدتنى خبرتى المحدودة ببعض الهند على فهم وجهة نظر الجمهورية الشابة فى احتفاظها بعلاقات ودية مع مستعمريها السابقين . ومرد ذلك إلى رجاحة عقول زعماء الهند الجديدة العظام ، لا تحمل نفوسهم الكبيرة شيئاً مما تصاب به أكثر أمم المستعمرات السابقة من العقد النفسية ، ومنها مركب النقص الذى يتحول إلى كره المستعمر السابق . . . لله فى لله !

رأيت الناس حولى فى الهند متفتحى الأفق ، صريحى الحديث ، لا تراهم يضمون رءوسهم بعضها إلى البعض ليتهامسوا ، ولا هم يتحفظون فى التحدث إليك فى أى شأن من الشئون . وإذا أدلى محدث بنقد لحكومته لا يدير الطرف فجأة لينظر حوله . رأيت صحف العالم منشورة أمامى ، ومجلاته مفتوحة لمن يقرأ ، وطالعت فى صحف الهند نقداً صريحاً بناء أبعد ما يكون عن المهاترة . . . وافتتاحيات منوعة المناحى ، تشبه كثيراً ما عودتنا عليه الصحافة الأوربية الكبيرة .

والهنود شعب مؤدب مهذب لا شك فى هذا . يكره العنف ، وإن أغرم بالكلام ، حسن الاستقبال لضيوفه فى غير افتعال . . . سألت شاباً عن طريق ، وكان يكفيه أن يدلنى عليه بكلمتين ، ولكنه آثر أن يصاحبنى حتى يضعنى على أول طريقى – وكان طريقاً ممتداً طويلاً – فلم يعرف ، أو لم يفهم أننى كنت أقصد منتصفه وحسب .

رأيت الهند كما أرى الديمقراطية الحقة فى مراتعها ومغانيها . فما حاجتى لمعرفة دستورها ومجالسها النيابية ؟ هذه بلاد مطمئنة إلى شخصيتها ، مثل كل الشعوب العريقة – إلا حين تصاب ، والعياذ بالله ، بالعقد النفسية – استطاعت غداة استقلالها أن تكسب شيئاً لا يقوم بثمن ، بعد قرون من استغلالها وإذلالها : ألا هو الحرية ، حرية الرأى ،

وحرية العقائد ، وسيادة «القانون» . لك أن تنقد ماشئت من مظاهر حياتها ، وبطئها ، ورواسب تقاليدها وطقوسها . . . كل ذلك لاقياس له ولا حساب ، بجانب أعلى وأغلى ما يملك الإنسان : حريته فى ظل قانون يحميه كما يحمى حرية الآخرين . . .

خمسمائة وخمسون مليوناً من البشر – حسب آخر إحصاء طالعته فى الصحف هناك (نوفمبر ١٩٧٠) – وكتاب الدليل طبعة ١٩٧٠ بين يدى ، وقف عند رقم ٥٣٣ مليون . . . كيف تمكن تيلاك وغاندى والسردار باتل ونهرو ورادا كريشنان ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، لا أن يحظوا بثقة الملايين ، فهذا مفروغ منه ، بل أن يولوا ثقتهم لتلك الملايين بدياناتها المتعددة ولغاتها الأساسية التى تقترب من العشرين (كان عدد رؤساء الوفد الهندى فى مؤتمر الكتاب الأفريقيين الآسيويين الرابع بنيودلهى ١٧ يمثلون ولايات الهند ، ولغاتها الرئيسية) ، أقول : كيف استطاع منشئو الهند الحديثة أن يثقوا بتلك الملايين ، وأن يقيموا بينهم الحرية والقانون والعدالة ، أركان الديمقراطية السليمة ؟

عرفت اليوم – ٢٩ ديسمبر ١٩٧٠ – خبر حل مجلس الشعوب الهندية (لوك صابها) . وأن انتخابات عامة خمسة أجريت منذ استقلال الهند عام ١٩٤٧ حتى اليوم ومعنى هذا أن كل مجلس نواب قام نحو خمس سنوات فى المتوسط . (قارن هذا بمجلس نوابنا أيام دستور مصر الأول الذى حار وغلب حماره بين الملك والإنجليز وزمرة الرجعية ، أصحاب المصالح فيما كانو يزعمون . .

أليست هذه هى الهند التى رأيتها منذ سبعة وثلاثين عاماً ترزح تحت الاستعمار الأجنبى وكان يتبجح بأنها جوهرة تاجه – إلا أن يكون المقصود هوماسة «كوهى – نور» فى تاج الأمبراطورية العظمى ، الماسة التى ضمتها (؟) الدولة المستعمرة إلى ممتلكاتها ، فيمكن القول بأن جوهرة تاجها جاءت من الهند والسند وبلاد تركب الأفيال !

أليست هذه هى هند الطبقات التى رأيت فيها البريطانى فوق الجميع – «أوبرأللس» كما سعى النازيون أن يكونوا بالنسبة لشعوب العالم كافة ! – والبرهمانى فوق الكشاتريا ، وهذا سيد الفيشيا وتحت أقدامهم الشودرا ، ثم من لاحق لهم فى مس أقدام الطبقات ،

من المنبوذين (وترجمتها الصحيحة من لا يمسهم المطهرون) ، وقد حماهم غاندى ، نبىّ الهند ، ووصفهم بأبناء الرب (الهاريجان) ؟

لم تختف الصورة تماماً ، ولكنها لم تعد تصدم النظرة العابرة كما صدمتنى فى الماضى البعيد – وهل أنسى منظر الأرملة كما رأيتها فى ريف الهند ، رمزاً للنحس والنجاسة ، يتجنّبها الناس تشاؤماً واحتقاراً . آثارها باقية فى توزيع الخدمة بين من يكنس ومن يغسل ، ومن يقف على المائدة أو يطهو . ولاحظ أن فى هذا جانب ضرورة ، فماذا أنت صانع بخمسمائة وخمسين مليوناً من البشر إذن ؟

اختفت «الساتى» عادة حرق الأرملة وجوباً مع جثمان زوجها ، حتى فى أيام الاحتلال الأجنبى ، إذ كان يطلب من الأرملة أن تقرر بنفسها ولسانها أمام المأمور رغبتها فى مصاحبة زوجها إلى . . . أم قشعم . وكان أهلها يحملونها على القبول ، ويزفونها زفًّا إلى مكتب مأمور الناحية ، فيعتبر هذا إكراهًا ، لا تطوعًا .

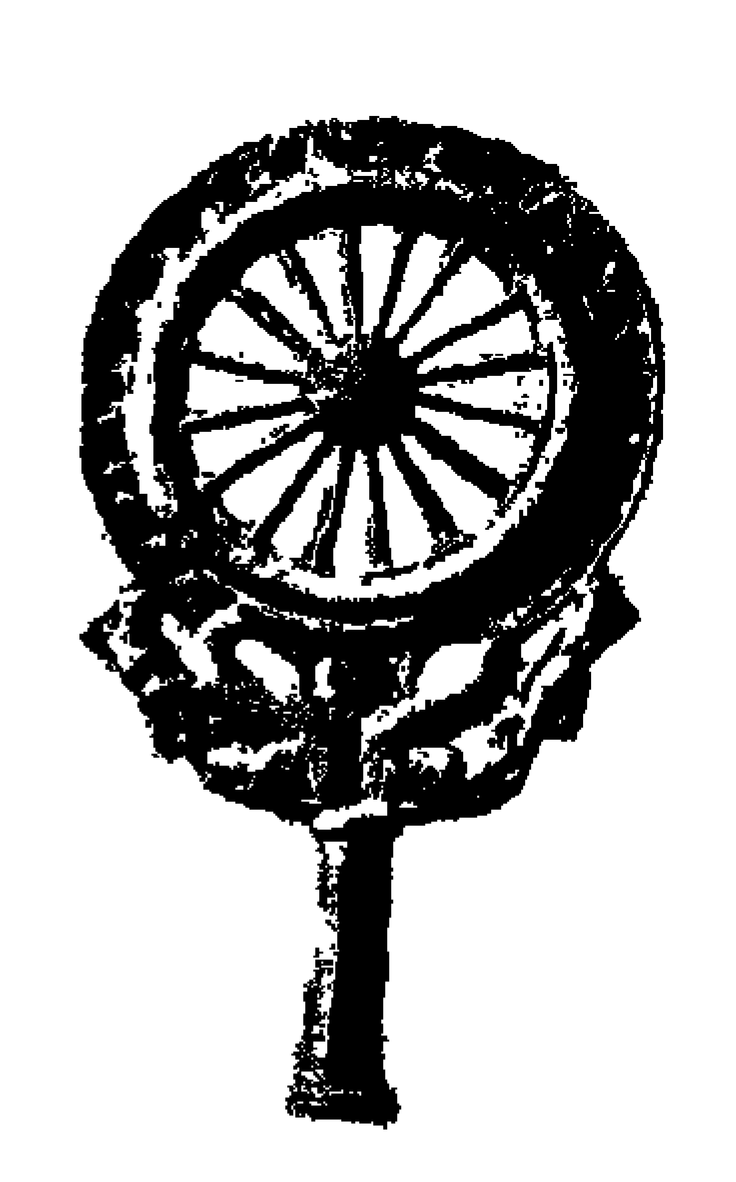
جاء دستور الهند الجديد – وهو دستور علمانى لا دين للدولة فيه – يحمى الأرامل ، ويحظر زواج الأطفال ، ويسوى بين الطبقات ، ويزيح الراجا والمهراجا (الأمراء الهندوس) والنظام والنواب (الأمراء المسلمين) ، ويفرض التعليم العام والمهنى ، فتتقدم الهند بخطوات حقيقية إلى «المجتمع الصناعى» وسيجئ الوقت الذى تختفى فيه الطقوس القديمة ، والعادات المعوقة للتقدم ، وتصبح كلمة القانون فى شأنها زائدة لا حاجة إليها .

كان هذا لقائى بالهند بعد سبعة وثلاثين عاماً . سعدت بلقاء السعداء ، حتى وإن لم يختف الفقر والجهل والحرمان والاستجداء . فماذا أنت صانع بشبه قارة تعتمد فى أصقاع شاسعة منها على الأمطار الموسمية . . . وحتى فى هذا تسعى حكومة الجمهورية الهندية إلى توقّى المجاعات بتنظيم الرى وإقامة الخزانات والسدود ، ووسائل المبادلات والنقل – شبكة الطائرات المدنية فى الهند رائعة حقًّا !

لم أكن حين قسوت على الهندوسية فى شبابى إلا صديقاً معاتباً للهند ، إذ كرهت التمسك بالنظم التى ضربها البراهمة قيودًا وأصفاداً على الشعب الهندوسى . ولقد تصافى

الصديق القديم فى رحلة الشيخوخة مع الهندوسية ، وهى فى تطور متواصل نحو التحرر الكامل ، وصدق منشئ دولة الهند الحديثة حينما قال لاندريه مالرو : «أن نقيم دولة عادلة ، بوسائل عادلة» .

القاهرة — ١٩٧١



من مشارف الهند إلى عاصمتها

«لا حق لنا فى الاستيلاء على السند . ولكننا سنستولى عليها مع ما فى هذا من سفالة ، إنما هى سفالة إنسانية مفيدة جدًّا» .

سير تشارلس نابير

«كان أول ما رأيت من الهند بحراً صافى الزرقة ، تلعب فيه الحيات البحرية . وهى حيات سامة صفراء اللون تتنفس الهواء ، وتتوالد على اليابسة ، ولكنها اعتادت الحياة فى الماء ، وتطور تكوينها تبعاً لهذه الحياة فتفرطح ذيلها إلى ما يشبه زعنفة الذنب فى الأسماك . وكانت كثيرة حول سفينتنا قبيل دخولنا إلى كراتشى ، ما إن تشعر بقربنا حتى تغوص فى الماء وهى تتلوى كأنها بريمات ذهبية تثقب صفحة من اللازورد . واسترعى بصرنا منظر الحدآت البحرية الضخمة يظهر منها على سطح الماء ما يشبه آذان الفيلة غاطسة تهش بها عن أجسادها بعض الهوام .»

فتحت كتاب «سندباد عصرى» بعد شهر كامل من عودتى ، قضيته بين نيف وعشرين كتاباً عن الهند أتنقل بينها وكأنى فى معمل تحميض ، أستظهر من الذاكرة رحلتى القريبة ، وأذيبها فى محلول الهيبو . وفوق هذا ما جاء به عن أول لقائى بالهند منذ سبعة وثلاثين عاماً .

وتم لقائى الثانى فى نوفمبر ١٩٧٠ ، وكان بطبيعة العصر على متن الريح ، والطائرة فوق البحر تقترب من بومباى ، قبيل الغروب .

كيف نسيت شمس بحر الهند (واسمه البحر العربى) ، بل كيف انصرف الشعراء عن وصف الشموس وأضوائها ، وعرفها المصورون لأن حياتهم فى عيون ترى الظاهر والباطن سويًّا . هرول الشعراء وراء الأقمار حتى خيب العصر آمالهم فى القمر ، عندما شاهدوا

نواتية الأفلاك (الأسترونوتية) يمشون بضع خطوات مضحكة ، أشبه بخطى مرضى «التابِسْ دورسَالِسْ» فوق بلقع مخيف لم يرهم المرحوم على محمود طه وهو يغار على حبيبته من ضياء القمر : —

أغار عليك من شاب كأذ لضوئه لحنا
تدق له قلوب الحور أشواقاً إذا غَنّا
رقيق اللمس عربيد بكل مليحة يُعنى
جرىء إن دعاه الشوق أن يقتحم الحصنا
تحذر من وراء الغيم حين رآك واستأنا
ومس الأرض فى رفق يشق رياضها الغَنّا

ضياء القمر واحد فى كل مكان ، ومن هلال إلى بدر هوهو يحمرّ فى مطلعه ويشع فى غروبه ، إنما هى الظلال والتضاريس ، وتحرك السحب ، وصفحات البحر والنهر والبحيرة والغدير هى عامل التغيير ، تتلقى ضوء القمر ، أو تتوارى فى ظلاله ، وأهم من كل هذا انعكاس نوره على وجه الحبيبة فى نعيم اللقاء .

كان لى زميل فرنسى بجامعة باريس علمنى القليل من لغة الدهماء ، وكان من فصحائها لا يجىء القمر على لسانه إلا فى عرض السخف والغباء كأن يصف شخصاً بأنه «مغفل كالقمر» والنعت هنا ترجمة ناقصة لكلمة فرنسية بذيئة لا تلفظ بحضرة نساء .

ظلم القمر زميلى وظلم المغفلين والأغبياء ، كما ظلمنا فى عاميتنا الحمار . فالقمر رائع الضياء يتجاوب مع أخيلة الشعراء بالليل . والحمار واسع الصدر ، قليل الحيلة ، يمثل الإنسان الطيب ، حمال الأسية .

أما الشمس فما أعجب أشكالها وألوانها وأنوارها ما بين الشمال والجنوب ، شمس منتصف الليل فى أقصى الشمال الأسكندنافى ، وشمس الأستواء ذات الجبروت ، شمس السمت وشمس الشروق والغروب .

شمس الخريف وشمس الربيع ، شمس الدفء فى شتاء مصر ، ما أكثر ما كنت أحلم بها يقظاً وأنا أسير الشتاء فى الشمال الأوروبى ، ولقد تعبت كثيراً حتى حققت التمييز فى مخيلتى بين أضواء الشمال والجنوب ، وفى المناطق الاستوائية . وفوق بحرينا الأبيض

والأحمر ، وعلى صفحة بحار الشمال والمحيط الأطلسى . والشمس على شواطئ كورسيكا ، تطل عليها جبال الجزيرة الساحرة ، وشمس الغروب فوق الجليد المتراكم جبالاً فوق جبال الألب والبيرينيه ، ولست أنسى شمس الغروب وأنا أطل على خليج فنلندا من فوق الصفوف العليا لاستاد لينينجراد ، ولا مدخل ريودى جانيرو .

كيف نسيت غروب الشمس فوق «بحر الهند؟» أغفت ذكراه فى كهف السبعة والثلاثين عاماً ؟ وما إن رأيته حتى صحت الذاكرة من رقيمها وأنا أتأمل الحزام البرتقالى العريض تمنطق به أفق الغرب ، لا أحسبنى شهدت له مثيلاً فى مكان آخر ، ولا فى خريف بلادى حين يتسربل الغروب بأردية وردية ذهبية قرمزية . حزام عريض فاقع البرتقالية ، بدءاً من خط الأفق عند ملتقى البحر والسماء ، ثم يتدرج مبتعداً ، ويتخفف من برتقاليته ، ليلبس قميص الليل .

وصلت إلى بومباى ليلاً ، واجتزت حشداً هرجاً يمثل شرطة الميناء الجوى ، والجمرك والسفار وشبابيك المصارف ، ومن ينازعونها القانون فيعرضون عليك أسعاراً للدولار والدينار غير قابلة للمزاحمة ، وأنت حر فى شرب المقلب حتى كيعانك ، إن نجوت بجلدك وعرفت سوء المنقلب بين يدى الجندرمه .

دلفت فى السيارة إلى فندق فى الناحية الأخرى من المدينة يقوم على ربوه ، وغادرته قبل مطلع الفجر لأستقل طيارة نيودلهى .

كان أستاذ الفسيولوجيا يقول لنا بأن حاسة الشم هى أقدم الحواس فى تطور المخلوقات ، وذاكرة الشم هى أقوى الذاكرات . وها أنذا وقد دخلت بومباى فى أول الليل ، وخرجت منها فى آخره . . . لا أتعرف على شىء من المدينة الكبيرة التى جست معابرها منذ سبعة وثلاثين عاماً ، جوس البحار المغامر . ومع ذلك فقد عرفت بومباى من رائحتها : خليط من أريج الزهرات البيض وسط الأزهار الصفراء التى يقلدك إياها الهنود تحية وترحاباً ، ومن رائحة عفونة زنخة ذكرتنى بتاريخ بومباى المنشأة على جزيرة أوصلت بالشاطئ . وهو الخليط الذى شممت فى آخر خطواتى بمعبد راميشفارام عندما عبرت من طرف الهند الجنوبى إلى جزيرة سيلان .

وبلغت نيودلهى فى أول الصباح . لاقيتها بنفس مشرقة ، متفتحة للقاء الأول

بعاصمة شبه القارة الهندية . . . ولمحت بعض آثار العمارة المغولية قبل أن أصل إلى دلهى الجديدة فأتبين من مبانيها الشاهقة ، وطرقاتها الفسيحة المستقيمة ، بقايا العمارة البزرميط التى ابتدعها الإنجليز لعاصمتى أمبراطورية الهند فى كلكتا ونيودلهى وفى بومباى ، العمارة التى يصفها الإنجليز بالفن القوطى الفكتورى مزججاً ببعض الفن المغولى . فن كله صلف وكبرياء ، واعتداد بالإمبراطورية التى لا تغرب الشمس عن ممتلكاتها . . . إلى أن غربت هى . . . الإمبراطورية .

صلف عرفته فى الفن الفرنسى (محبشاً) بالمغربى فى الشمال الأفريقى . . فن يمكن من خلاله أن تحالل نفسية المستعمر المتكبر العاتى .

ولكنى اليوم أدخل عاصمة جمهورية الهند العظيمة فى استقلالها ، يتصل تاريخها التالد بحاضرها الجديد ، واعجب إذ تعرف بأن أول مالفت نظرى وسط آثار الحضارة القديمة والحديثة . . . هو اختفاء الريكشو ذلك الدوكار الصغير الذى يجره آدمى ، تلك السبَّة التى نزلت بالإنسان إلى مصاف الدواب . كبرت الريكشو بعض الشيء ، وأخذت تسعى على ثلاث عجلات ، وتحول الحمار الآدمى إلى شوفير يجلس إلى عجلة القيادة ويسعى بين السيارات والباصات يزاحمها ويسبقها بالانسياب بينها كالعفريت الصغير ، فى فرقعة موتوسيكلية غلابه .

وحتى فى بلاد الريف الهندى تحولت إلى تريسكليت يركبها السائق ممتطياً كرسى دراجه ، يحرك بدالاتها ، وينذر المارة بجرسها اللطيف .

رحم الله الحمير الآدمية الذين جروا ركشواتى فى السنين الخالية بكراتشى وبومباى ومدراس وكولومبو ، فى إحراج سيلان وسط آثار أنورادابورا عاصمتها القديمة .

لقد حفظ كتاب «سندباد عصرى» صورتى مجعوصا فوق الريكشو ، وأمامى الدّابة الآدمية . كلما تأملت الصورة خجلت من نفسى وكيف رضيت أن أصور فى هذا الوضع المزرى بإنسانية الراكب ، وبمن يجره .

فى متحف «الحصن الأحمر» بدلهى رأيت نماذج من فن التصوير المغولى تمثل سلطاناً أو أميراً يركب فرسه . . . ويدخن الشيشة» وتعرف هناك «بالهوكاه» «الحقة» ؟ . المبسم فى بوز سموه ، و «اللى» أى الخرطوم المزخرف يمتد كالثعبان حتى يبلغ قنينة

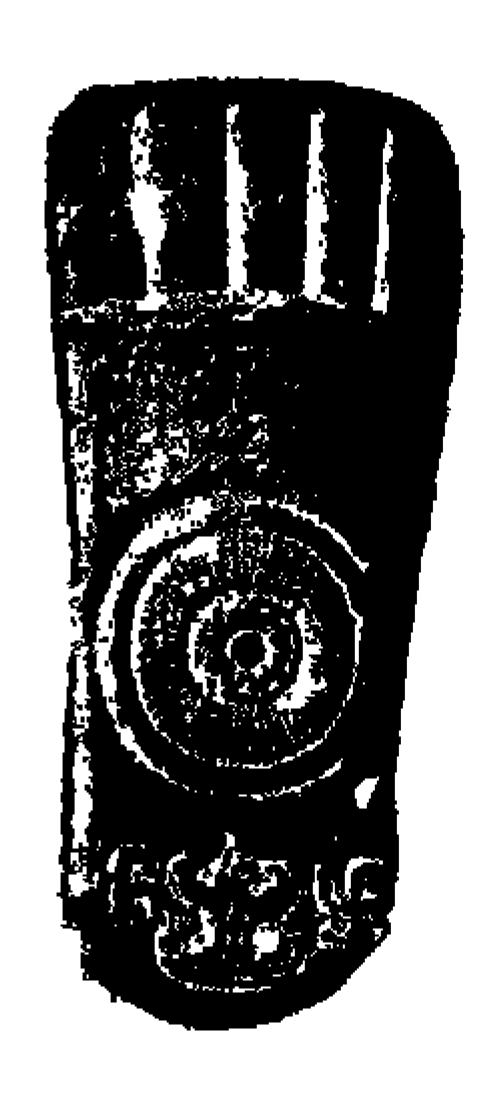
«الحقة» حيث التبغ والنار والماء المعطر بروح الورد . . . يحملها خادم يسعى على قدميه . . طيب فهمنا . . . !

ولكن هناك صورة أخرى تمثل الفارس المغولى يحارب ، أو على الأقل يحرك الرمح من فوق جواد يترهون . . والشيشة لا تفارق فمه ، والخادم يحمل بقية العدة . . ويجرى كالحصان .

كان هؤلاء المغول هم إنجليز القرون السابقة على الاحتلال البريطانى ، تركوا آثار فن إسلامى آسيوى جميل ، يحظى بإعجاب العالم .

ولم يترك البريطانيون غير ذلك الفن الفكتورى المهجّن . . . ولكنهم بشهادة المنصف ، والهنود قوم منصفون ، نشروا العمران فى شبه القارة الهندية ، وصدقت فيهم كلمة «الاستعمار» على الرغم من صديق حصيف يصّر على نطقها «الاستخراب» لعله يعنى تخريب العقل وتدمير الشخصية .

وهذا لم ينجح لا فى الهند ، ولا فى أى بلاد تعيش تاريخها وحضارتها السالفة ، ولغاتها ، وعقائدها .



خلفية تاريخية لابد منها

«ولا يختم الكاتب تاريخ الهند كما يختم تاريخ مصر (الفرعونية) أو بابل أو آشور. لأن تاريخ الهند ما برح يصنع، وحضارتها القديمة ما فتئت تبدع...»

ول ديورانت عام ١٩٣٥

أعطى ول ديورانت لحضارة الهند والصين واليابان قسطاً طيباً فى كتابه الكبير (تاريخ الحضارة) (٥١٧ صفحة تمثل أكثر من نصف المجلد الأول.)

قال فى مقدمة هذا المجلد، وعنوانه «تراثنا الشرقى»:

«تاريخنا يبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرح أقدم الحضارات المعروفة لنا فحسب، بل لأن هذه الحضارة هى التى ألفت خلفية وركيزة للثقافتين اليونانية والرومانية، وهما فى رأى سير هنرى مين (مؤرخ القانون) منبع العقل الحديث. وهذا رأى غير صائب. وستعرونا الدهشة إذ نعرف بأن الكثير مما لا غنى عنه فى مخترعاتنا، أو نظامنا الاقتصادى والسياسى، وعلمنا وأدبنا، وفلسفتنا وعقيدتنا مرجعه إلى مصر، والشرق.»

وختم فصوله عن حضارة الهند قائلاً:

«لا يختم الكاتب تاريخ الهند كما يختم تاريخ مصر (الفرعونية)، أو بابل أو آشور. لأن تاريخ الهند ما برح يصنع، وحضارتها القديمة ما فتئت تبدع...

«ولا نزعم للهند بالعطاء المباشر لحضارتنا، كما تابعنا ما ندين به لحضارة مصر، والشرق الأدنى. فأصحاب هذه الحضارة هم أسلاف ثقافتنا مباشرة، بينما جرى تاريخ الهند والصين واليابان فى «مسار آخر. وقد بدا منذ عهد غير بعيد يلمس تيار الحياة الغربية، ويؤثر فيها...

«. . . ولعلّنا نتعلم من الهند التسامح ، ودماثة العقل الناضج ، وقناعة النفس العفة ، وهدوء الروح الواعية ، وحب كل المخلوقات الحية ، ذلك الحب الذى يؤلف بين القلوب ويمنحها الطمأنينة والسلام . »

لأأنوى الاستغراق فى الكتابة عن حضارة الهند ، فهذا يتطلب أكثر مما تطلبه استيعابى لحضارة بلادى . وإنما هى مصادفات الحياة أعادتنى إلى الهند فى رحلة عابرة قبل أن يبلغ عام ١٩٧٠ منتهاه كما خطفت بى السفينة العلمية «مباحث» إلى شواطئ الهند فيما بين سنتى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ لألقى على بعض نواحيها نظرات سريعة . وكان من المستحيل على فى شبابى ، وفى شيخوختى ، أن لا يهتز كيانى حتى بالقليل الذى رأيت من شبه القارة العظيمة ، فأسجل انطباعات الشباب المتوثبة ، وأحاول ، وقد تقدم بى العمر ، النفاذ إلى حضارة الهند بأكثر من مجرد المشاهدة .

ولربما استطعنا أن نبلغ صميم الحضارة التى قامت وتقوم على شواطئ بحرنا الأبيض ، دون حاجة إلى معارف تفصيلية لخلفيتها التاريخية .

فقد عرفنا فى مراحل تعليمنا بعض تاريخ تلك البلاد ، هذا إلى أننا بحكم موقعنا ، واتصالنا من قديم بها واندماجنا فى الحضارة الإسلامية نيفًا وثلاثة عشر قرنًا ، وتمثيلنا الطيب للحضارة الأوربية منذ نحو قرنين ، لا نجد فى ظواهر الحياه حول البحر الأبيض المتوسط شيئاً غريباً علينا .

أما حين يشطّ بنا المزار ، فى بلاد الشرق البعيد ، فإننا نشعر بالغربة والاستغراب حيالها ، ونسعى أول ما نسعى إلى استحضار خلفية تاريخية نسجل عليها رؤانا وانطباعاتنا .

والتاريخ فى الهند لا ينفصل عن دياناتها المتعاقبة : الفيدية ، والبرهمانية ، والبوذية والجائينية وكذلك الفن والأدب . مما يتطلب ولو إلمامًا بسيطاً بالتاريخ والعقائد . أما حين تبلغ حقبة الهند الإسلامية تحت الحكم المغولى . فإن من اليسير علينا أن نفهم فن سلاطين المغول ، كصورة من صور الفن الإسلامى (بعامة) مهما تطور وتحور فيما بين أواسط آسيا ، وشواطئ الأطلنطى .

لن نقحم عليك درساً تاريخياً عن الهند ، فقاقد الشيء لا يعطيه ، ومن باب أولى

لا يلقنه درساً للناس . يكفيك ويكفينا أن نتعرف على بعض الخطوط الرئيسية لذلك التاريخ ، لنتقدم بها إلى محاولة فهم العقائد ، وننتهى إلى سدرة الفن .

ولقد عرفت منذ زيارتى الأولى أن معالم التاريخ الهندى كما حققتها الآثار المكتوبة والمنقوشة والمحفورة والمبينة ، تنقصها الدقة في تحديد سنواتها ، مما يشبه إلى حد ما تاريخ الأسرات الأولى ، أو ما قبلها فى مصر . ولا تغرنك تواريخ موضوعة لبعض الوقائع والأحداث بالهند القديمة ، فهى فى كلها استنتاج بقرينة ، واستنباط من وقائع متقاربة .

ولديورانت هنا ملحوظة ظريفة ، وهو يضع قائمة بمعالم التاريخ الهندى فيقول : التواريخ قبل سنة ١٦٠٠ م غير مؤكدة . أما التواريخ قبل عام ٣٢٩ ق . م فهى حدس ورجم بالغيب .

وأعفيك من الكلام عن حضارة العصر الحجرى الحديث فى ميسور (٤٠٠٠ ق . م ؟ ؟) ، أو حضارتي «موهنجو دارو» و «هارابا» .

إنما هناك حقيقة ثابتة ، دون تحديد مكانها من القرون ، هى إن سكان الهند الأصليين اختلطوا أو غلبوا على أمرهم من جنس آرى انحدر إليهم بطريق الغزو الكبير الذى يصل بين أواسط آسيا وبلاد «البنج أب» أى خمسة الأنهار ، وهي روافد نهر السند منحدرة من جبال كشمير . وكلمة «آريا» فى السنسكرتيية والإيرانية تعنى : السادة . وإذا كنت لا تعرف الأصل فى نظام الطبقات عند الهندوس ، فاعلم أن الأصل فيها هو ذلك الزحف الآرى .

أقول الزحف اتباعاً لرأى بعض المؤرخين بأن الجنس الآرى لم يجئ غازياً بقدر ما انتشر طلاباً للمرعى . . . والنتيجة واحدة ، لا سيما وأناشيد «الريجفيدا» أقدم الآثار الأدبية الدينية فى الهند تشير إلى ما يعرف بمعركة الملوك العشرة .

ويبدو أن الهجرة الآرية الأولى لم تبلغ وادى نهر جمنا (يامونا) . وتلتها هجرة آرية ثانية استقرت فى وادى الجنج (جنجا) ، واختلطت بالسكان الأصليين ، بل واستألفت بعض عقائدهم ، ولكنها نقلت إليهم لغة آرية وهى السنسكريتية .

وتبدأ فذلكتنا التاريخية حينما تقوى الاختلاط بين الجنسين ، وتمتد موجته إلى جنوبى

وادى الجنج وما والاه. وآثار هذا التداخل والانتشار ظاهرة فى ملحمتى الهند الكبيرتين : « الرامايانا » « والمهابهاراتا » وقد وضعتا فى عصر تأخر كثيراً عن الوقائع التى تسردانها (ويشبه ذلك تاريخ وضع « الإلياذة » و « الأوديسية » متأخراً عما تحكيهما من أحداث ومعارك .

دخل الإسكندر بلاد الهند عام ٣٢٧ ق . م نافذاً إليها من بلاد الفرس عبر جبال الهندكوش . واجتاز فى السنة التالية نهر السند متجهاً إلى الجنوب الشرقى . وهزم الملك فور (بوروس) . وعندما تأهب الإسكندر لمواصلة الزحف شرقاً حتى آخر الدنيا ، أبى عليه ذلك جيشه المتعب ، فعاد وعادوا أدراجهم ومات ابن فيليب وأوليمبيا قرب بابل .

ولم تمض سبعة أعوام حتى تقلص النفوذ المقدونى . واستطاع فتى هندى : « تشندراجوبتا » من طبقة المحاربين (الكشاتريا) أن يحرر بلاده ، ويحكم كأول ملك من أسرة « الموريا » امتد ملكها على أفغانستان وهندوستان مدى نحو ١٥٠ عاماً . ولقد أوفد سليوقس نكاتور المقدونى ، ملك سوريا ، سفيره ميجاستينس إلى بلاط مؤسس « الموريا » ، وأعجب بنظام مملكته وحضارتها التى لم تقل فى نظره عن حضارة السليوقيين فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وأكد الأمر المؤرخ البريطانى ماكدونل (عام ١٩٣٧) عندما كتب بأنها تحظى بكل وسائل الرفاهية والترف ، ودقة فى كافة الصناعات اليدوية بما يضارع ما بلغته حضارة المغول المسلمين فى الهند لثمانية عشر قرناً بعد ذلك الزمان .

ويبرز « أشوكا » (٢٧٣ ق م) فى أسرة « الموريا » كأعظم ملوك الهند طراً . ويقول عنه الدكتور بانيكار : « عاشت إمبراطورية الموريا خمسين ومائة سنة . ويقر التاريخ العام بأن أشوكا واحد من عظماء الدنيا . وبعد حياة باكرة استغرقتها الحروب والغزو ، تاب أشوكا عن الحرب كأداة سياسية ، وأعلن فى بيان مؤثر بأن النصر الوحيد الجدير بالتحقيق « هو الانتصار على النفس الأمارة . »

وقضى أشوكا بقية حياته يبشر بالبوذية ديناً ، ومنهاجاً خلقياً يرفض العنف ، فينشر فى شعبه النخوة ومكارم الأخلاق فى صورة مراسيم تحفر على صفحات الصخور ، وتنقش فوق عمد تقام فى أنحاء الإمبراطورية ، ما زالت عشرة منها قائمة إلى اليوم ، وتوصل الأثريون إلى تحقيق مواضع عشرين أخرى .

كان أشوكا واسع الصدر والفكر ، لم يفرض البوذية على رعاياه فكلهم أبناؤه : «كل ما يعنى به صاحب الجلالة القدسية ، هو ضبط النفس ، وأن لا يمتدح امرؤ ديانته على حساب ديانة الآخرين ، إلا على أساس من التعقل ، علماً بأن كل عقيدة جديرة بالاحترام لسبب أو لآخر . . . والوئام أس الفضائل . والتقوى التى يمارسها صاحب الجلالة القدسية حولت قرع طبول الحرب إلى تجاوب أصداء القانون . »

وأنشأ أشوكا البيع والأديرة البوذية بالمئات والآلاف ، كما أقام المستشفيات للآدميين والعجماوات . وأوفد البعوث للتبشير بالبوذية إلى سوريا ، ومصر ، واليونان . وأرسل ابنه ماهندا إلى سيلان (طابروبانى القدماء ، وسرنديب العرب) يحمل فرعًا من دوحة الجميز التى نام جوتاما شاكيا مونى فى ظلالها ، وأدركته الحكمة والعلم (البوذى) حال صحوه . وغرس أمير الموريا هذا الفرع فى أنورادابورا عاصمة سرنديب القديمة (راجع «سندباد عصرى» .)

وبعد وفاة أشوكا ، واصلت البعوث تبشيرها فى التبت ، والصين ، ومنغوليا ، واليابان . وانحلت أسرة الموريا ، ومضى نحو ستمائة عام قبل أن تقوم فى وادى الجنج أسرة «الجوبتا» فأعاد أعظم ملوكها (المسمى سامودرا جوبتا) مجد الإمبراطورية ، حتى وصف حكمه بالعصر الذهبى . ازدهرت الفنون والعلوم والآداب ، وجاء الشباب من أنحاء آسيا يطلبون العلم فى المعاهد الهندية .

وفى عصر أسرة «الجوبتا» حفرت ونحتت كهوف «أجانتا» فى بطن ربى «الدِّكَنْ» ، وزينت جدرانها بالفريسكات الرائعة ، وما فتئت مقصد محبى الفنون والسائحين إلى اليوم ، على الرغم مما أصابها الزمان من تشويه ينطلق جمال ألوانها من خلاله ، وتحيا أشخاصها تحت لمسة ضوء المصابيح الساطعة فى ظلمة الكهوف . فينسى الرائى ما يعتور اللوحات من فعل الحدثان .

وعاش الشاعر كاليداسا (مؤلف تمثيلية «شاكونتالا») فى عصر ابن سامودراجوبتا الذى جمع حوله الشعراء والفلاسفة والعلماء والفنانين فى عاصمته الجديدة «أوجين» (أزين الجغرافيا العربية) .

وصف الرحالة الصينى «فإن – هين» ثراء البلاد ورخاءها ، وأشاد بفضائل شعبها ،

وهنائهم فى مجتمع يتمتع بالحرية الدينية والاجتماعية .

ولم ينس الرحالة الصينى فى حماسه الإشارة إلى أن سماحة ذلك العصر الزاهر حققت للبراهمة – علماء الهندوسية وفقائها – العودة إلى الثراء والسيطرة ، فتمكنوا من إعادة التقاليد الدينية والأدبية التى كانت سائدة قبل ظهور البوذا ، وبدأ بذلك عصر انحسار البوذية شيئاً فشيئاً عن الهند حتى اختفت منها نهائياً ، ولكنها كانت قد ذاعت وسادت فى أنحاء آسيا إلى الشمال ، والشرق ، والجنوب الشرقى من شبه القارة الهندية .

وفى عصر الجوبتا ، وفى حماية البراهمة ، تمت الصيغة المعروفة إلى اليوم فى اللغة السنسكريتية ، للملحمتى الهند : «المهابهاراتا» و «الرامايانا» .

وبعد أحقاب من الاضطراب ، وغزوات البرابرة – كما كان شأن الهند فى أكثر من حقبة – قيض لواحد من أسرة الجوبتا أن يحرر الشمال ، ويتولى الحكم فى عاصمة جديدة ينشئها ، وهى «قنوج» ويعيد بعض العصر الذهبى لأسرة الجوبتا مدى اثنين وأربعين عاماً .

وسنسمع بقنوج ، ونقرأ عنها فى الفتوحات الإسلامية ، عندما دمّر الغزاة المسلمون عشرة آلاف معبد من معابدها .

كان هذا الملك – هارشا ناروهانا – إلى كفاءته فى الحكم – شاعراً ومؤلف تمثيليات ما فتئت تقرأ إلى اليوم . ويعتبر خاتمة الملوك الوطنيين العظام فى تاريخ الهند التى ظلت بعد انحلال أسرة الجوبتا فريسة القلاقل والبرابرة المفسدين ، مدى الف عام . لم تنهض من عثارها إلا على أيدى مؤسس دولة المغول فى الهند ، السلطان جلال الدين محمد أكبر .

الإسلام فى الهند

«كان سلطان دهلى - أبو المجاهد محمد بن تغلاق ،
أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء . فلا يخلو بابه
من فقير يغنى أو حى يقتل .»

«ابن بطوطة»

جاء فى «فتوح البلدان» للإمام أبى الحسن البلاذرى أن عثمان بن أبى العاصى الثقفى ، والى البحرين وعمان من قبل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وجه أخاه إلى البحرين . ومضى هو إلى عمان . فاقتطع جيشاً إلى تانه عبر البحر ، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك . فأجاب عمر : **يا أخا ثقيف ، حملت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله لو أصيبوا ، لأخذت من قومك مثلهم .**

وولى الخليفة الراشد ، عثمان بن عفان ، عبد الله بن عامر ، العراق . ثم كتب بأمره بأن يوجه إلى ثغر الهند من ينصرف إليه بخبره . فوجه حكيم بن جبله العبدى . فلما رجع أوفده إلى عثمان ليصف له حالة البلاد . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عرفتها وتنحرتها : ماؤها وشل (= قليل) ، وتمرها دقل (أردأ التمر) ، ولصّها بطل - إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا .

ويبدو أن عثمان رضى الله عنه كان ميالاً إلى الدعابة ، فعلق على كلام عامله : أخابرٌ أم ساجع ؟

أجاب ابن جبلة : بل أنا خابر ، ولم يبتسم !

فلما كان آخر سنة ثمان وثلاثين ، فى خلافة على كرم الله وجهه ، توجه إلى ثغر الهند الحارث بن مرة العبدى متطوعاً ، بإذن الخليفة ، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً . ثم أنه قتل ومن معه بأرض القيقان إلا قليلاً . والقيقان من بلاد السند فيما يلى خراسان .

ثم غزا ذلك الثغر المهلب بن أبى صفرة فى أيام معاوية ، سنة أربع وأربعين ، فأتى نبه والأهواز وهما بين الملتان وكابل ، فلقيه ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة (سوى البيطار حدافرها) فقاتلوه ، وقتل الترك جميعاً . وقال المهلب : ما جعل الأعاجم أولى بالتشمير منا (مشر : انبسط فى العدو) . فحذرف الخيل ، وكان أول من حذرفها من المسلمين .

وتتوالى الغزوات – دون احتلال وإقامة – حتى عصر الوليد بن عبد الملك ، وقد تولى الحجاج بن يوسف الثقفى شئون العراق . فولى مجّاعة بن سعر التميمى ثغر مكران فغزا وغنم وفتح طوائف من قندابيل .

وأهدى ملك جزيرة الياقوت (سرنديب العرب) نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ، ومات آباؤهن ، وكانوا تجاراً ، فأراد التقرب بهن . فعرض للسفينة التى كن فيها قوم من ميد (= قرصان) الديبل فى بوارج ، فأخذوا السفينة بما فيها . ونادت امرأة منهن : يا حجاج ! فجرد ابن يوسف الثقفى حملة تأديبية إلى بر السند . وأغزى عبد الله بن نبهان الديبل ، فقتل . ثم وجه بديل بن طهفة البجلى ، فلما لقيهم نفر به فرسه فأطاف به العدو وقتلوه .

ثم ولى الحجاج محمد بن القاسم فسار إلى مكران ، ومنها أتى قنزبور ففتحها ، ثم إلى أرمائيل ففتحها ، حتى نزل الديبل فحاصرها . ونصب منجنيقاً تعرف بالعرس ، كان يمد فيها خمسمائة رجل . وخرج إليه جيشها ، فهزمهم حتى ردهم ، وأمر بالسلاليم فوضعت ، وصعد عليها الرجال ، وفتحت الديبل عنوة ، ومكث محمد يقتل من فيها ثلاثة أيام . واختط للمسلمين بها ، وبنى مسجداً ، وأنزلها أربعة آلاف .

وجعل محمد بن القاسم – وهو أول من يذكر فى كتب التاريخ العام بصدد الغزوات الإسلامية الأولى للسند – لا يمر بمدينة إلا فتحها ، حتى بلغ وادى مهران (نهر السند) فعبره ليلاقى داهر كبير البلاد يركب فيلاً ، وحوله الأفيال فوق الأفيال . فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وترجل داهر وقاتل حتى قتل فى المساء . وانهزم المشركون فقتلهم المسلمون كيف شاءوا . وانتهى محمد بن القاسم إلى فتح مدينة الملتان ، حيث قتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البد (= الصنم) وكانوا ستة آلاف ، وأصابوا ذهباً كثيراً فى بيت اختزن فيه

المشركون أموال النذور . إذ كان أهل السند يحجون إلى بيت البد ، يطوفون به ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده .

قالوا : ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف ، فقال شفينا غيظنا ، وأدركنا ثارنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ، ورأس عدونا . ومات الحجاج .

ويلقى محمد بن القاسم جزاء سنمار ، بعد موت الوليد بن عبد الملك وتولية سليمان أخيه الذى استعمل على العراق رجلاً موتوراً اسمه صالح بن عبد الرحمن ، كان الحجاج قتل أخاه . وتولى يزيد بن أبى كبشه السند ، فحمل ابن القاسم مقيداً . وأنشد القائد المقدام يقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   بيوم كريهة وسداد ثغر

وحبسه صالح بمدينة واسط فأنشد :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها   رهن الحديد مكبلاً مغلولا
فلرب فتية فارس قد رعتها   ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذب البطل العربى حتى قتل . . .

وواقع الحال فى كل هذه الغزوات أنها لم تستند إلى استراتيجية مرسومة ، فضلاً عن بعد الشقة بين السند وبين العراق ، هذا إلى أن الهجوم على الهند من الغرب لم يكن سهلاً . ولذا يشير التاريخ العام إلى أن غزوات العرب الأولى لا تعتبر فتحاً واستقراراً ، فالسند لا تمثل قاعدة صالحة لغزو الهند بسبب ضعف مواردها .

ويفتح المسلمون صفحة جديدة فى الغزو بعد تفكك الدولة العبّاسية إلى دويلات متفرقة وسط آسيا استقلت بها أسر حاكمة . ومن بين هذه كانت أسرة اليمينى التى أسسها مماليك من الترك فى المناطق الجبلية حول غزنة وبدأت هذه الأسرة تطمح فى غزو الهند ، منذ تولى الإمارة منشئها سبكتكين (سابوكتاجين) (٩٧٧ – ٩٩٧ م) وقد تمكن من فتح الأراضى الواقعة بين لامغان وبشاور ، فى طريق الغزو الطبيعى للنفاذ إلى وادى – الجنج . وهو الطريق الذى عانى منه البريطانيون فيما بعد أشد المعاناة من العشائر

الأفغانية (الوزيريستان) . وكان يعرف فى تاريخ الهند البريطانية باسم «التخوم الشمالية الغربية» التى تتطلب حماية دائمة لممر خيبر.

وخلف محمود بن سبكتكين أباه أميراً على خراسان وغزنة . وتلقى من القادر خليفة بغداد الخلعة ، ولَقَبَىْ : يمين الدولة ، وأمين الملة .

واندفع محمود الغزنوى يجاهد فى سبيل الله بتحطيم أوثان الهندوس ومعابدهم والاستيلاء على كنوزها وجواهر أصنامها . وقد شغل طوال حكمه بغزوات امتدت على السنوات من عام ١٠٠٠ م حتى سنة ١٠٢٩ م ، أحصيتها فكانت اثنى عشرة حملة ، آخرها كانت على بلاد فارس . وأشهرها فتح مدينة سومنات فى شمال غربى الهند (١٠٢٥ م) . حين خرج من الملتان وعبر الصحراء حتى بلغ معبد الآله شيفا العظيم . وكان «اللنجام» – وهو عمود إسطوانى طوله ثلاثة أمتار يرمز إلى عضو من أعضاء شيفا – فى سومنات مرصّعاً بأثمن الجواهر والحجارة الكريمة .

فعندما تمت هزيمة المدافعين ، لجأ الشعب وفلول الجيش إلى عرصات المعبد ، مع ألف من سدنته وستمائة من المغنين والراقصات (الديفاداسى) والحشم والخدم . إذ كان معبد سومنات من أغنى معابد الهند ، أوقف عليه وحده خراج آلاف من الدساكر والقرى .

التجأ الآلاف من الأنفس حول قدس أقداسهم يدعون شيفا أن يخلصهم من الغازى . ودك محمود المعبد دكاً ، ودار فى الأحياء تقتيلاً ، وقيل بأن خمسين ألف هندوسى قتلوا فى ذلك اليوم . وحطم الصنم بعد أن التقط الغزنوى جواهره .

كانت غزوات تقتيل وهدم وإبادة وحمل أموال وكنوز إلى غزنة . فلم يبق محمود فى الهند لبضعة أشهر إلا بعد فتح مدينة سومنات . ولم يحكم بنفسه أى إقليم هندى . إلاّ أنه بعد أن قضى على سلطان اثنين من راجات لاهور ، احتفظ لنفسه ولذريته بحق تعيين حكام البنجاب على اعتبار تبعيتها لغزنة ، وقد مارس هذا الحق سبعة من خلفاء محمود بن سبكتكين الذى توفى سنة ١٠٣٠ م .

كان محمود الغزنوى واسع الخبرة بشئون القيادة ، مقاتلاً غازياً ، ثابت الجنان صلب الإرادة . والعجيب فى هذا القيل الجبار – إذا حبسنا لساننا عن وصفه بوصف آخر –

أنه كان ولوعاً بالأدب ، يجالس الشعراء والعلماء ، وما زالت بعض آثاره المعمارية قائمة حيث كانت عاصمة الدولة الغزنوية . وقد اصطحب فى غزواته عالماً من أكبر علماء القرون الوسطى ، المؤرخ والفلكى والجغرافى أبا الريحان البيرونى . الذى ألف نتيجة اطلاعه على أحوال الهند ، كتاباً عمدة فى الفلسفة الهندية ، وعقائد الهندوس : (تحقيق ما للهند من مقولة فى العاقل أو مرذولة) نشره وترجمه وعلق عليه زخاو (لندرة ١٩١٠) .

وفى ١١٨٦ م . طرد محمد الغورى فلول الأسرة الغزنوية من لاهور ، وغزا شمال الهند حتى بلغ أبواب دلهى ، وأتم فتح إقليمى بيهار وبنغالة . وبعد مقتل الغورى استولى قائده ومملوكه قطب الدين أيبك على ملكه وأسس أسرة «المماليك» . واستقر فى دلهى حيث أقام السلطنة التى عرفت باسمها ، حتى أسس ببر سلطنة المغول عام ١٥٢٦ م ، وجعل دلهى عاصمة الإمبراطورية .

ثلاثة وثلاثون سلطاناً حكموا الهندستان ، انتظموا فى أسرة المماليك (١٢٠٦ – ١٢٩٠) ، والخلجى (١٢٩٠ – ١٣٢٠) ، والتغلاق (١٣٢٠ – ١٤١٣) والسادات (١٤١٤ – ١٤٥١) وأخيراً أسرة اللودى (١٤٥١ – ١٥٢٦) .

ولعل علاء الدين الخلجى كان أقوى كل هؤلاء السلاطين شكيمةً ، فتح بلاد ججرات (جزرات العرب) ودمر أقوى حصون محاربة الهندوس العظام ، المعروفين بالراجبوت ، واحتل عاصمتهم تشيتور . ومما يؤثر عن دفاع الراجبوت المستميت أنهم حين أحسوا بالنهاية عمدوا إلى تقليد قديم لهم يعرف «بالجوهار» فقتلوا نساءهم وبناتهم حَصاناً لهن من العدو المنتصر . وفى حكم أسرة الخلجى امتد حكم المسلمين عبر نهر الناربدة إلى هضبة الدَّكَّن ، ومنها اندفعوا حتى الطرف الجنوبى لشبه القارة .

ولمن يعنى بصورة حية لحكم أسرة التغلاق أن يرجع إلى رحلة ابن بطوطة ، فقد نزل بضيافتها أيام السلطان محمد بن تغلاق ، وكان حكم المسلمين قد امتد من ما دورا جنوبى مدراس حتى كشمير شمالاً .

ولا تكمل صورة الإسلام فى الهند ، ولا واجب الإنصاف نحو شعوب الهند الأصلية ، إلا أن نشير إلى عنصر المقاومة الهندوسية لذلك الغزو الماحق ، وإلا أن

نتحدث عن إمبراطورية المغول . وهى الدولة الإسلامية الكبرى التى رفعت شأن العمران الإسلامى بالهند . فى عهد عظمائها الثلاثة : ببر رأس الأسرة وحفيده السلطان محمد أكبر . وحفيده شاه جهان بانى «تاج محل» ، من أخلد آثار العمارة وأجملها فى تاريخ الفنون .



أقيال راجبوتانا

«هذه هى سيتا ابنتى ، أعز على من روحى ،
«شريكتك فى السراء والضراء ، » «وفية لقرينها وفاء الظل
لصاحبه ، » «هذه هى سيتا ، ست البنات» «رفيقتك فى
الموت كما فى الحياة»

الرامايانا — النشيد الأول

لن تكمل لدينا صورة الإسلام فى الهند إلا بعد فذلكة تاريخ الدولة المغولية . . بعدئذ يمكن أن نتحدث عن أثر الدين الحنيف هناك . ولا بأس من أن نُلَخِّصَ هنا ذلك الأثر ، وبلسان أستاذ هندوسى بجامعة كلكتا .

«نوه الدكتور سونيتى كومار شاترجى بأثر محى الدين بن عربى ، ورابعة العدوية ، وذى النون المصرى ، ومنصور الحلاج العراقى ، «فالطريقة الصوفية بلطفها نجحت فى نشر التفكير الإسلامى أكثر من عنفوان الطريقة التركية ، إذ وجد الإسلام والهندوسية ساحة مشتركة وتقارباً من أول وهلة . . . ونفذ التفكير الصوفى إلى الثقافة الهندوسية بسهولة فأوسع أفقها ، وأثرى مطمحها روحياً واجتماعياً .»

إنما لا حيلة لنا فى التجاوز عن ضروب القسوة الهمجية التى عومل بها الهندوس ، بل والمسلمون أيضاً ، من سلاطين الترك . ولدينا شاهد لا مِنّا ولا مِنْهم ، فهو المغربى اللواتى الطنجى ، أبو عبد الله بن محمد المشهور بابن بطوطة ، وقد نزل ببلاط السلطان أبى المجاهد محمد بن تغلاق ، ووصف لنا خيره وشره ، كما استعرض فى أول فصوله عن الهند حكايات بعض سلاطين أسرة بلبن وأسرة الخلجى . فعلاء الدين قتل عمه غيلة ليستقل بالملك : «وركب السلطان جلال الدين النهر للوصول إلى ابن أخيه (علاء الدين) ، وركب ابن أخيه أيضاً فى مركب ثان ، عازمًا على الفتك به ، وقال لأصحابه : إذا عانقته فاقتلوه (قبلة بهوذا الاسخريوطى) . فلما التقيا وسط النهر عانقه

ابن أخيه ، وقتله أصحابه كما أمرهم ، واحتوى على ملكه وعساكره » . . . ويقول ابن بطوطة بعد ذلك بأربعة سطور لا غير « واستقام لعلاء الدين الأمر عشرين سنة ، وكان من خيار السلاطين ! » . . . وحاول ابن أخ له « أن يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك ! ! » . وقطب الدين بن علاء الدين أخذ ابن أخيه وأمسك برجليه ، وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه . و « بعث الله تعالى عليه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ، ناصر الدين خسرو خان ، ففتك به وقتله ، واستقل بملكه ، إلا أن مدته لم تطل فى الملك ، فبعث الله عليه أيضاً من قتله بعد خلعه ، وكان القاتل مؤسس أسرة جديدة من السلاطين ، أسرة « تغلق » . وكان ابنه هو السلطان أبو المجاهد محمد ، مضيف ابن بطوطة . وقد أحصيت الصفحات التى كتبها عن هذا السلطان حتى أوفده « بالهدية إلى الصين » فكانت ١٠٠ صفحة . تحدث فيها عن « بعض أخباره فى الجود والكرم » فى نحو عشرين صفحة » . أما « ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله » فقد ملأت أربعة وثلاثين صفحة . عدا صفحتين عن « ذكر ما هم به السلطان » من عقاب ابن بطوطة !

ويقول مؤرخ مسلم فى كتابه « طبقات الناصرى » بأن كان أمام « مشور » (حوش التشريفة) محمد بن تغلاق هذا « تل من جثث القتلى ، فى حين كان الكناسون والجلادون يسقطون إعياءً من سحب الضحايا وإعدامهم بالجملة » وأن ابن تغلاق كان « صاحب ميول علمية فى الرياضة والفيزياء . . والفلسفة اليونانية ! ! »

وتولى السلطنة بعده المدعو فيروزشاه ، فغزا البنغال وكان يعطى مكافأة عن كل رأس من قتلى الهنود . أما السلطان أحمد شاه فقد أقام الأفراح والليالى الملاح عندما حقق عدد الهندوس المدنيين المذبوحين فى بلاده رقماً قياسياً إذ بلغ عشرين ألف رأس فى يوم واحد .

كل هذه أرقام تستحق أن نتهمها بالمبالغة ، لولا أن قد عرفنا فى زماننا زعيماً ألمانيا صنع أبشع ما نطالعه فى هذه الأخبار القديمة . وقدر عدد ضحاياه فى الأفران ومعسكرات الاعتقال بالملايين . أما قواده الذين اتهموا بالتآمر على قتله فقد علقوا من رقابهم فى مخاطيف القصابين ، وكان واحد منهم برتبة ماريشال . ولم يحضر الفورر

إعدامهم مكتفياً بأن يشاهد فيلم التنفيذ . . بالألوان ! !

إنما هو الانطباع العام عندما نتابع غزوات مسلمى آسيا الوسطى وهى تندفع من الشمال كسيل العرم لا تعوقه العوائق ، وكأن الشعب الهندى لا حول له ولا قوة أمام هذا الانهيار الدافق . ويساعد على هذا الانطباع القراءة فى عقائد الهندوس حين يخرج القارئ بفكرة مجملة عن أنها تحض على الاستهتار بالحياة ، وهذه خيال فى خيال ، ومجرد حلقة فى دورات التناسخ ، تواجه شئون الدنيا بسلبية عجيبة ، مادام الهدف الأول والأخير هو محاولة الخروج من الحلقة المفزعة بالتقوى ، والاستسلام و « الآهمسا » أى عدم العنف . واحترام الحياة أينما وجدت ، من الهوام إلى الضوارى وإلى بنى آدم . والواقع أن ظاهرة تميز الهندوسى فى فقره ومسغبته ومحنته وتلقيه الكوارث التى تنزل به ، من صنع الطبيعة أو الحيوان أو الإنسان : هى تسليمه ، وقدرته الخارقة على احتمال المكاره !

بيد أنا نطالع للفيلسوف الرواقى اليونانى آريان صاحب كتاب « انابازه » (القرن الميلادى الثانى) فى تاريخ الإسكندر الأكبر ، قوله : « الهنود فى الحرب كانوا أشجع أجناس آسيا » .

إن ما يسر أمر اقتحام الغرباء لأرض الهند ، على طول تاريخها ، حتى تدخل « شركة الهند الشرقية » ، ومن ورائها الحكومة الإنجليزية ، كان الخلافات والحروب الأهلية والمنازعات بين الأسر الحاكمة ، وداخل الأسرة الواحدة . والنتيجة أن تعرضت حضارات الهند المتعاقبة لمطامع العشائر الغازية المنحدرة من الشمال كالإسقوط والهون والأفغان والترك ، كما تعرضت لاحتلال البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز بطرق احتياليه ، تبدأ زيارة فتجارة ، فالتدخل لفض المشاحنات الداخلية ، أو حماية أمير من أمير . وأخيراً التحول من الحيلة إلى الحرب السافرة ، والإخضاع بالأسلحة الحديثة .

ولكن منطقة فى الشمال الغربى من الهندستان ، تقع بين البنجاب شمالاً ، وولاية بومباى جنوباً ، تعرف « بالراجيوتانا » كانت قبل الفتوح الإسلامية تقر بزعامة إمبراطوريتى « الموريا » و « الجوبتا » ثم تحركت لمقاومة الغزو الإسلامى ، فالغزو

البريطانى . واسم هذه المنطقة مشتق من مجموع سكانها «الراجبوت» وهى كلمة سنسكريتية تعنى «أبناء الملوك» .

والراجبوت مجموعة من العشائر والدويلات تحمل أسماء عواصمها : ميوار ومروا وبكانر وجودبور إلخ . نشأت من امتزاج الأسقوط والهون بالسكان الأصليين . وتربت على الفروسية والحرب يذكرنا بمحاربة اليابان «الساموراى» ، وبالمماليك المصرية درجوا على الفروسية والقتال منذ الصغر .

ولراجبوتانا مؤرخ بريطانى هو اللفتنانت كولونل طود وضع كتاباً سنة ١٨٩٤ فى مجلدين «حوليات راجاستان وآثارها» . أقام فيه أوجه الشبه بين الراجبوت و «فرسان المائدة المستديرة» ، أقيال الملك أرثر وقال : «كان الزعماء الراجبوت على سجية تماثل سجايا فرسان العصور الوسطى ، ولكن الراجبوت يتفوقون على هؤلاء فى نضوجهم العقلى .»

وكانوا حماة لنسائهم ، أجمل نساء الهند ، يموتون دفاعاً عنهن . يقابل ذلك تغالى الزوجات وقبولهن عن طيب خاطر أن يحرقن مع جثمان أزواجهن . ولم تجرد جبلّة الحرب فى هؤلاء النبلاء من ملكة قرض الشعر ، أو القراءة فى العلوم . وكذلك نساؤهم يجمعن إلى العفة ثقافة وأناقة ورقة . يمارسن وبعولتهن الرسم بالألوان المائية فى أسلوب المنمنمات الفارسية .

كان جل مقاومة شعوب الهند للغزوات المتتابعة يعتمد على فروسية أمراء الراجبوت . وقد تغالى هؤلاء فى مدافعة الجيوش الغازية حتى آخر رمق ، تسقط حواضرهم واحدة إثر الأخرى حتى «تشيتور» التى قال عنها الكونت كايزرلنج بأنه لا مكان على الأرض شهد من ضروب البطولة والفروسية ، واستقبال الموت ، ما شهدته مدينة «تشيتور» .

ويشبه ول ديورانت حصار هذه الحاضرة وسقوطها بأسطورة «موت آرثر» ، أو ملحمة البطل الأسطورى رولان يدافع عن مليكه شارلمان فى شعاب جبال البرينيه ضد جحافل المسلمين الزاحفين على فرنسا من شبه جزيرة إيبيريا .

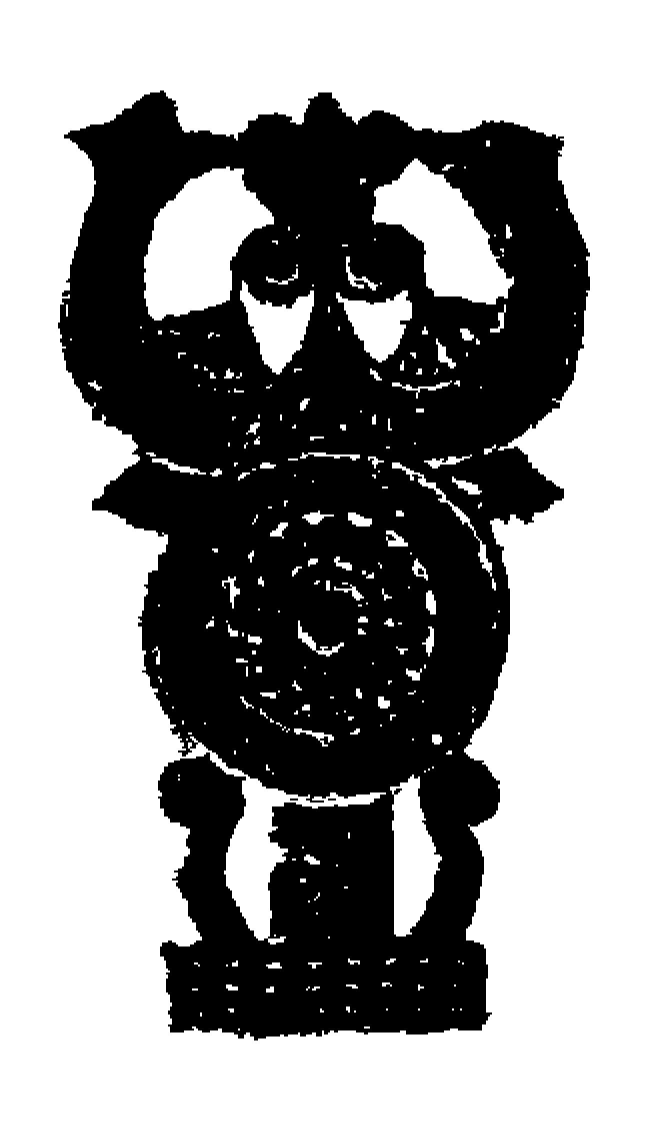
وأسطورة «تشيتور» تأبى إلا أن تجعل من السلطان علاء الدين خلجى رجلا متيمًا بحب الأميرة الراجبوتيه «بدمينى» ، وهو يطالب راجاتشيتور بتسليمها مقابل رفع الحصار

عن المدينة . فيرفض الراجبوت . ويرضى علاء الدين بالتخلى عن الحصار لو سمح له برؤية بدمينى ، فيرفض الراجبوت . وأخيراً يكتفى السلطان بمشاهدة خيال ست الحسن والجمال . . . فى المرآة ، فيرفض الراجبوت .

ويحارب النساء ، زوجات وبنات وأخوات ، إلى جانب رجالهن ، فيشتد هؤلاء فى القتال حتى يفنوا ، وتحرق نساؤهم جماعة تبعاً للتقليد العشائرى المعروف «بالجوهار» .

ويدخل السلطان علاء الدين الخلجى مدينة «تشيتور» وليس فيها نأمة ، ولا نفس . . ولا حيلة !

صورة رومانتيكية رائعة ، يحسن أن تضاف إلى قائمة الأساطير الجميلة فى تاريخ الوفاء بين الرجل والمرأة ، والفناء فى سبيل الوطن .



السلطان جلال الدين محمد أكبر

«السلطة تنفث السم فى اليد التى تلمسها»
الشاعر شللى

لم يبق فى الهند مكان لم تحتله جيوش المسلمين سوى مملكة فيجاى ناجار فى جنوب شبه القارة . وكان المسلمون فى آخر القرن الخامس عشر منقسمين إلى ممالك متنافرة : فى لاهور والبنغال وأحمد ناجار وجولكنده وبدجابور وبيدار .

ولم يكن أولئك الغزاة إلا قشرة رقيقة على بحر الهندوسية . وينشق فجر القرن السادس عشر عن أسرة مالكة جديدة ترتد أصولها إلى تيمورلنك التركى وجنكيزخان المغولى .

أسسها ظهر الدين محمد ببر (الأسد) ، وقد بدأ ملكاً فى فرغانة بالتركستان ، أقصى عن ملكه فجمع حوله عصبة من المغامرين وفتح كابل الأفغان ، ثم استولى على سمرقند ، وفقدها ثلاث مرات . ففضَّل أن يتجه جنوباً ليقضى على سلطنة دلهى ، ويستولى على لاهور وأجرا ، وينادى به سلطاناً فى مسجد دلهى عام ١٥٢٦ م .

وتولى الحكم بعده ابنه همايون ، وكان فتى غراً هوائياً ومدمن أفيون . أهم ما يذكر به مدفنه الذى بناه بدلهى ابنه جلال الدين محمد أكبر ، وأنه . . والد هذا الابن .

ورث جلال الدين عرش أبيه حدثاً ، وألقوا به فى أيدى أمه ومرضعته ووزرائه . وما أن بلغ العشرين حتى صرع وزيره الأول . . . بقبضة يده . فقد كان شاباً مفتول العضل ، تمرس بالصيد والقنص وترويض الفيلة ولعب البولو . ربعة القوام ، عريض المنكبين ، مقوس الساقين ، مغولى السحنة ، مقطوب العينين ، جهورى الصوت ، رابط الجأش ، صارم الملامح ، ذا غضبة مغولية لا تقاس بجانبها غضبة مضر .

أمى ، فالكتابة والقراءة لم تكن تليق بالغزاة من جنسه . وما حاجته إلى ذلك وعنده

الكتبة يملى عليهم ، والقراء يطالعون له ما يشاء . قوى الحافظة كما هو الحال عند من لا يقرءون ولا يكتبون . حفظ تاريخ المسلمين وشعر الشعراء ، وتفهم مبادئ الهندوسية والجائينية والمجوسية . والقراءة بالسماع تشحذ الفكر ، وتفسح مجال التأمل على أساس من ذاكرة حافظة .

تعمق المعارف ، وتوطدت مواهبه فى الحكم والإدارة . حرص على أن يكون جيشه متيقظ الأهبة ، متواصل التدريب ، لا يتلقى الهجوم ، بل يكون أول المهاجمين . أوسع رقعة ملكه بالغزو فملك أفغانستان وقندهار وبلوخستان والبنغال وفتح الجزرات ، ومدينة سورات ، وسلطنة أحمد ناجار فى الدكن ، وأخضع الراجبوت محاربة الهندوس الصناديد ، وجعل من مروج كشمير رياضه الخاصة .

أداة الحكم جيشه ، يختار من رجاله الوزراء والسفراء وحكام الأقاليم . جلهم من الشمال ، من جبال الأفغان ، وسهول آسيا الوسطى ، ودهاس الفرس ومنغوليا . جيشه القائم لايتعدى خمسة وعشرين ألفاً ، يرتفع وقت الحاجة إلى مليون من أجناد الأقاليم . قواد الجيش على مختلف رتبهم يعرفون بالمنصب دار ، حتى من يعين منهم فى وظائف « مدنية » .

السلطان هو رئيس الوزراء . مجلسهم يتألف من « الوكيل » والوزير أو « الديوان » للمالية ، و « البخشى » وهو كبير الأمناء ، و « الصدر » لمشيخة الإسلام . وكان كلما توطد حكمه تخفف من الحكم العسكرى .

بلاطه يجمع رجال العلم والأطباء إلى الشعراء وأرباب الفن والأدب . وفى « الزنانة » (أى الحرملك) ثمانمائة محظية (وقيل ٥٠٠٠ ؟) يحرسهن نسوة وأغوات .

يصله ماء الجنج أينما يوجد السلطان ، وفواكه كشمير وسمرقند ، وثلوج الهمالايا ، وعنده المئات من حراس الصيد ، ومن « الشيكارية » (مروضى الصقور) . وكان مغرماً بلعبة البولو إلى درجة أن صنعوا له كرات مضيئة لكى يلعب ليلاً إذا شاء . يقطع « الزامندار » إقطاعات لا تورث . أنهى نظام « الملتزمين » ، وعين بدلهم موظفين .

أدرك جلال الدين محمد أن لا نجاح يرجى لهذه الإمبراطورية الواسعة ، بأغلبيتها الهندوسية الساحقة ، إلا أن يقرب إليه هؤلاء . فرفع عنهم الجزية ، وتزوج أميرة من

راجبوتانا ، ابنة راجا «أمبر» . وتسامح فى ممارستهم لطقوسهم وتقاليدهم ، ولكنه أصلح بعض عيوبها ، فقضى على زواج الأطفال ، وسمح للأرملة بالزواج وكانت – إذا لم تحرق مع جثمان زوجها – تعامل معاملة المنبوذين ، يحلق شعرها وترتدى الثوب الخشن . وفرض أن لا يجرى «الساتى» (حرق الأرملة) إلا برضاها . وحظر بيع أسرى الحرب عبيداً ، وذبح الحيوانات تقدمة للآلهة . وفتح الأبواب للكفاءات دون حساب لعقيدة أو جنس .

كان أهم قواد السلطان من الراجبوت ، وعين واحداً من الراجات وزيراً . إذ كان حلمه الأكبر إنشاء هند موحدة . وقد حقق هذا الحلم ، وإن لم يتح للرؤيا أن تبقى طويلاً ، لأن «أكبر» لم يكن مالكاً لاعنة حياته امتلاك عظماء الرجال العمليين الذين طوعوا خيالهم للواقع ، على ضوء العقل البارد الرصين (يوليوس قيصر . نابليون ، واشنطن. بسمارك) إنما الذى لم يرس قاعدة حكمه على أساس ثابت هو منحاه الفلسفى ، أو الميتا فيزيقى . والإنسانية – إن لم تكن امبراطورية المغول التى لم تعش طويلاً – هى التى كسبت مثل هذا الرجل الفذ ، يكتب اسمه فى صفحات تاريخها . لأنه ، وهو الأمى «ولا يعنى هذا أن يكون الرجل غفلاً من المعرفة والعلم والثقافة ! «استطاع خلال مشاغل الحكم والإدارة والحرب والتنظيم والأسفار بطول إمبراطوريته وعرضها ، أن يجمع مكتبة حافلة بالمخطوطات والمنسوخات التى كتبها وحفرها خطاطون ورسامون مهرة ، كان لهم عنده مقام معمارييه ومصوريه . أهداه اليسوعيون مجموعة حروف طباعة أوربية مختارة ، فلم يُعْن بأمرها لأنه كره العملية الآلية التى لا حياة فيها . واحتوت مكتبته على أربعة وعشرين ألف مجلد .

كان الرجل ولوعاً بالشعر ، حفياً بالشعراء ، أعجب من بين هؤلاء بشاعر هندوسى اسمه بربال ، فقربه ، ثم عينه قائد جيش . وكأنه فكر بجمهورية أفلاطون ! وخاب القائد الشاعر ، ولم يعد من المعركة بخف ولا بخفين ، بل ذبح وهو يولى الأدبار . وفرح بمقتله المسلمون حتى شيعه مؤرخ منهم فقال فى غل المتشفى : «ولحق بربال ، الهارب من المعركة ، بصفوف الكلاب المحشورة فى جهنم وبئس القرار» .

وترجم كتّاب السلطان إلى الفارسية – لغة البلاط – أمهات كتب الهندوس فى

الأدب والتاريخ والعلوم . وأشرف بنفسه على ترجمة «المهابهاراتا» ملحمة الهند الكبرى . وازدهرت الفنون فى عصره : الموسيقى والشعر والرسم والتصوير .

أقام حصن أجرا ، وأنشأ بداخله خمسمائة بناء ، هدمها حفيده شاه جهان ، لنا أن نستدل على جمالها وجلالها فى مدفن أبيه همابون بدلهى ، وفى مدينة فاتح — بور — سيكرى التى جعل منها عاصمته ، على بضع خطوات من أجرا . وقد تحولت بعده إلى المدينة المتحف ، أو المدينة الشبح ، لا يسكنها نافخ نار . فهى «الأميرة النائمة» فى أكفان مرمرها ناصع البياض وحجارتها الرملية الحمراء . لا تصحو إلا على هرج الزائرين من أقاصى الأرض . زارها سفراء الملكة اليزابيث سنة ١٥٨٣ ، واستقبلهم السلطان أكبر فى «ديوان الخاص» ، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، وتجولوا فى أرجاء حاضرة السلطان المغولى الأكبر ، فإذا هى تبذ لندن زمانهم أبهة وحياة باهرة . وجحظت عيونهم وهم يشاهدون حجارة الماس تضوى ، وعكست حدقاتهم ألوان الجواهر والحرائر والسجف المنشورة يمنةً ويسرةً .

بناها محمد أكبر بعد أن يئس من ميلاد خلف له ، فقصد الشيخ سليم شستى فى قرية قميئة ، وتلقى السلطان بركات العارف بالله . فلم يلبث أن منّ عليه الكريم بغلام أطلق عليه اسم الشيخ . وهو الغلام الذى حكم الإمبراطورية بعد أبيه باسم السلطان جهانكير . وقرر العاهل أن ينقل عاصمته من أجرا إلى محلة القرية . وتم بناؤها سنة ١٥٦٩ . وأكبر مبانيها المسجد الجامع الذى يتسع لعشرة آلاف من المصلين . وفى ناحية من صحن الجامع يقوم قبر العارف بالله الشيخ شستى تحت مظلّة مرصعة بالصدف . وانتثرت الابنية فى مساحة المدينة الفسيحة : «ديوان الخاص» للتشريفات الرسمية ، وديوان العام» للجمهور يشرف عليه السلطان من علياء عرشه المرمرى المرصع ، وقصور زوجاته ، وباب الفيلة ، والباب الأعظم ، «بولاند دروازة» أى باب النصر . ومجلس الفلكى الخاص ، وجواسق الشعراء .

كان محمد أكبر فيلسوفاً فى حلة سلاطين . فهو القائل : «إن عقلى لا يعرف الراحة وسط هذا الاختلاف بين العقائد والفرق . فكيف أطمئن محوطاً بمظاهر السلطنة ؛ إلى مباشرة حكم الإمبراطورية وأنا نهب الجزع . أنا سيد بلاد ممتدة الأطراف ، أمسك

بزمام الحكم كله ، بيد أن العظمة الصادقة هي في تنفيذ مشيئة الله . وإني لأترقب ظهور رجل حكيم ، أخي استقامة يفك عقدة ضميري . فمجادلات الفلسفة تأخذ بلبي حتى لأذهل عن الدنيا ، فأضطر إلى كبح نفسي عن الاستماع إلى تلك المساجلات ، حتى لا أهمل الشئون الملحة في وقتها » .

هذا هو سر السلطان جلال الدين محمد أكبر ، الذي درج على الاتصال بالحكماء والشعراء الهندوسيين يسائلهم عن مغزى عقائدهم ، وهو القادر على تكييف نفسه مع عقائد شعبية : يرضى المجوس بارتداء قميص قداستهم ، ويشد على وسطه منطقتهم ، تحت حلّته الملوكية ، ويقتنع بمبادئ « الجائين » الذين يحسبون حساباً حتى لحياة الهوام ، فيضع كهنتهم نقاباً خفيفاً على فتحات وجههم كي لا تصيب أنفاسهم تلك الهوام بضر ويكنس الخدم الأرض أمامهم حتى لا يدوسوا على حشرة ضئيلة . يقتنع السلطان فيمتنع عن رياضة شبابه : الصيد والقنص ، ويحرم ذبح الحيوان في أيام يحددها .

وحينما سمع بأمر ديانة جديدة عليه جاءت إلى الهند مع احتلال البرتغاليين لمدينة جوا على ساحل الملبار ، أرسل إلى المبشرين هناك ليوفدوا إليه اثنين من حكمائهم . فجاءه اليسوعيون يشرحون له ديانة الناصرى ، فيأمر بترجمة الأناجيل ، ويأذن لهم بالتبشير ولكنه يرفض التثليث ، فعل ذلك في عصر كان الكاثوليك يذبحون البروتستانت في فرنسا ، والبروتستانت يقتلون الكاثوليك تحت حكم اليزابيث ملكة إنجلترا ، ويربط الفيلسوف جوردانوا برونو إلى سارية المحرقة أمام الأشهاد في روما .

هذا العاهل ، سليل السفاح المغولى جنكيز خان ، وصِنْوِه التركى تيمور الأعرج ، يدعو ممثلي أديان مملكته ليقدم لهم « عهد السلام » ، ويصدر مراسيم التسامح الديني . وكان مدار فهمه أن لا تتعارض العقائد مع العلم والفكر الفلسفي . وفي لقاءاته الأسبوعية مع رجال الأديان من مساء الخميس حتى صباح الجمعة ، احتدم الجدال بين الشيوخ والقساوسة ، وتحدى واحد من « المُلاّ » مناجزه المسيحى أن يحتكما إلى الامتحان الخطير الذي جعلته العصور الوسطى في آسيا وأوروبا فصل الخطاب . أن يحمل الشيخ مصحفاً ، والقس إنجيلاً ، ويعبرا ناراً موقدةً . ويحسم الأمر من يخرج سالماً من « المحنة الفاصلة » (= الاورديل) . ورفض القس مغامرة اعتبرها تخريفاً وكفراً .

ضاعت جهود السلطان فى التوفيق سدىً . فقام بنفسه – والنفس أمارة – يعقد « مجمعاً » يأمر فيه ممثلى الأديان بأن يتفقوا على ديانة تعبد إلهاً واحداً ، هوالوجودبكلياته وجزئياته ، فما الكون المادى سوى مظهر للذات الإلهية . وأصدر مراسيم مستحيلة التنفيذ تجمع بين المسلم والجائين والمجوسى والهندوسى . وأقام فى فاتح – بور – سكرى ، وسط « رحبة السلام » ، بناءً عجيباً سماه « عبادت خانة » ، تهرع إليه شعوب الهند فى أخوة ، يعبدون إلهاً واحداً .

ذكرتنى هذه المحاولة الخطيرة بواحد من ضيوف مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية عرض علينا أثناء تحصيلنا الطبى هناك : دخل الرجل متأبطاً أوراقاً وكراريس ملأى بالكتابات ، وتحدث إلينا ، فى حماس بالغ ، تردده بين المسيحية والإسلام حتى وفق إلى ما سماه « الديانة العقلية » . وكان الأستاذ يصرح لنا فى فترة الراحة بالتحدث إلى ضيوف المستشفى ، واخترت صاحب الديانة العقلية زاعماً أنى أطلب مزيداً من الشرح والإفصاح . هادفاً إلى أن أتلقى منه بعض أوراقه – وما أكثر ما تلقيت من المساكين ثمة عرائض وأوراقاً – ولكنه رفض بتاتاً أن يجود على ولو بقصاصة » .

لم يقبل على دين التوحيد الإلهى ، ولا عمل بمراسيم السلطان أكبر إلا الوصوليون وخاطبو رضاه ونداه . لم يزد عددهم على آلاف قليلة فى بلاد الملايين .

وثارت ثائرة المسلمين يقودهم . . . سليم جهانكير ولى عهد السلطنة ، وقد طال انتظاره لعرش يشغله أبوه منذ أربعين عاماً ، متمتعاً بتمام صحته وعنفوانه !

حشد جهانكير جيشاً عماده ثلاثون ألف فارس ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وقتل صديق أبيه الحميم ، ومؤرخ عصره ، الشيخ أبا الفضل . ولم يكن بعسير على محمد أكبر أن يخضع ولده العاق . . . ويعفو عنه .

ولكن واقعة خروج فلذة كبده عليه ، وحزنه على مقتل صديقه أبى الفضل ، وموت والدة السلطان قبل ذلك ، هدت من حيله ، وكسرت شوكته . فعاش أيامه الأخيرة مُجهّلاً من أولاده الذين أفنوا طاقاتهم فى الخلاف على العرش .

مات السلطان أبو الفتح جلال الدين أكبر وحوله حفنة من الباقين على عهده . وجاء الشيوخ إذ حضرته الوفاة فى محاولة لإعادته إلى الطريق السوى ، فلم يفلحوا . ولم

يصل عليه شيخ ولا كاهن . ولم تشيع جنازته الحشود ، وإذا كان أبناؤه لبسوا الحداد ذياك الصباح ، فقد رحبوا فى المساء بوراثة ملكه العريض .

كانت هذه نهاية عاهل عظيم فى عدله وسماحته ، وإقامة صرح العلوم والفنون والآداب . تاه فى بوادى الفلسفة حتى هوى الظلام عليه بأجنحته الكئيبة . ولكن التاريخ العام أنصفه ، وآثاره الباقية علائم مجده .



أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته

«إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى
من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم
ولاهم يحزنون» .

صدق الله العظيم
(المائدة – ٦٩)

يقف السلطان جلال الدين محمد أكبر – وهو قطعاً أكبر من تولى حكم الهند – فى صف عظماء تاريخ آسيا ، عندما يمثل رئيس الدولة الفكر المتفتح ، واتساع الأفق ، والجهاد فى سبيل السلام ، وما يضفيه السلام على الأمم من الخير العميم ، والثراء الروحى .

ولا يعنى كاتب هذه الفذلكة عن إمبراطورية المغول ، بعد وفاة محمد أكبر ، سوى شخصية واحدة ، جديرة بسلسلة من الحكام الظلمة ، سواء أهرقوا دماء شعوبهم فى حروب الغزو والاعتداء بحجة أو بأخرى ، أو دماء محكوميهم بذنب وبغير ذنب .

إننى حبست نفسى عن الإغراق فى وصف التقتيل والإعدام والهدم والسلب والسبى والاغتصاب الذى عانت منه الهند على أيدى الغزاة والفاتحين ، من نزلوا بأرضها نزول الأوبئة ، وكوارث الطبيعة ، مكتفياً بالنزر اليسير مما كتبه ووصفه ابن بطوطة الرحالة المغربى الأشهر .

خذ مثلاً «بعوضة» من ذلك العاتى المسمى جهانكير ابن السلطان أكبر ، والذى خلفه على العرش ، اخترته اتباعاً للمثل الذى يشير إلى «مستصغر الشرر» . . . أو الشر إذا فضلت .

كان جهانكير ابن أميرة الراجبوت التى تزوجها أكبر ، تلقى ما يتلقاه أبناء الملوك العظام من شر يفوق الخير . فنشأ سكيراً ، والخمر محرمة على المسلمين والهندوس ، فاسقاً

مستهتراً . أشار هذا «السادى» فى مذكراته إلى أن واحداً من حاشيته وبعض خدمه اقتحموا خطأً ، الساحة التى ساق إليها الحرس طرائد الصيد ، فأفلتت . فأمر السلطان بقتل رجل الحاشية . أما الخدم فقد أمر بتقطيع أوتار عضلات أفخاذهم خلف الركبة . وكتب يقول بعد أن أشرف على التنفيذ «ثم واصلت رياضة الصيد» .

حاول هذا السفاح على رأس ثلاثين ألف فارس إزاحة أبيه العظيم عن عرشه ، فخاب ، وعفا عنه السلطان ، وعاش هذا العاق ليرقى العرش ، وإذا بابنه المسمى خسرو يتآمر عليه . فأعدم السلطان فوق الخازوق سبعمائة من المتآمرين ، تراصوا فى صفوف ممتدة على طول شوارع لاهور . وسجل فى مذكراته الوقت الذى استغرقه الموت فى تخليصهم من العذاب !

ولا يعنينى من أمر خليفة جهانكير ، وهو المعروف تاريخيًابشاه جهان إلا أنه الآمر بإنشاء مبان تعتبر من أجمل آثار العمارة الإسلامية فى آسيا ، وعلى رأسها «تاج محل» ، مقبرة زوجه المعشوقة ممتاز محل .

بلغت الإمبراطورية فى حكم شاه جهان ذروة ثرائها وسلطانها . ولكنه قضى على الكثير من شعبه فى حروب خارجية استنفدت شطراً هاماً من ثروة الإمبراطورية .

ويقول ول ديورانت فى سخرية قاسية : بدأ شاه جهان حكمه بقتل إخوته ، ولكنه أهمل قتل أبنائه . ثم أزاحه ابنه أورانجزيب عن العرش بالمؤامرة التقليدية فى أسرة المغول : حشد هذا الابن العاق جيشاً فى هضاب الدكن ، وجهز شاه جهان حملة لتأديب العصاة ، ولكنه أوصى قواده بأن يحافظوا على حياة ابنه ، وولى عهده . وتغلب جيش العصاة ، ووقع السلطان شاه جهان فى الأسر، فسجنه ابنه فى حصن أجرا ، وعاش المعزول فى محبسه تسع سنوات ينظر من طنف سجنه إلى قبر زوجته ممتاز محل ، وتحنو عليه ابنته ، ولا يزوره الولد العاق ، ولو أنه حقق أمنية أبيه فدفنه إلى جانب سلطانته تحت قبة تاج — محل .

كان المسلمون ، منذ آخر أيام جهانكير ، وفى عصر شاه جهان قد استعادوا نفوذهم فى بلاط المغول . وقام المُلاّ وهم الشيوخ على تربية الفتى أورانجزيب تربية إسلامية قويمة . فعاش طول حياته متمسكاً بقواعد الدين الحنيف ، محافظاً على سلامته ، رحيماً

بشعبه المسلم . لم يعن بفن ، حتى الموسيقى حرمها على نفسه ، وكان عازفاً بارعاً . آثر شظف العيش فى المأكل والمشرب والملبس . كان يجيد العربية والفارسية ، بالإضافة إلى لغته الأوردية ، واللسان الهندى . حفظ القرآن وجوده ، وقرأ الأحاديث النبوية . تولى إمارات هامة فى حكم أبيه ، وحارب فى الشمال والجنوب . فوطد ملكه الذى امتد من شواطئ بحر بنغاله حتى شواطئ الملابار ، ومن جبال هندكوش فى الشمال الغربى ، حتى جبال الدكن فى الجنوب . وهاجم مملكة الشيعة فى بيدجابور وجولكندة . وكل هذه حروب أتمت استنزاف ثروة البلاد ، وإذا كان شاه جهان قد صرف قدراً كبيراً من أموال الدولة فى إقامة الأبنية الجميلة ، وتشجيع الفنون والآداب ، فإن ابنه المتقشف أثقل الخزانة بحروبه الكثيرة .

وإن كانت الإمبراطورية بلغت شأو اتساعها وعزها فى عهده ، فقد فقدت من جراء تعصب أورانجزيب تماسكها الذى أحكم رباطه السلطان أكبر بسياسته السمحاء ، التى جمعت حوله أصحاب الديانات المخالفة – وهم أغلبية شعبه – يؤازرونه بحبهم ، وتفانيهم .

أما أورانجزيب فقد ضيق عليهم الخناق ، فأوقف أعيادهم الدينية ، وهدم معابدهم وكسر أوثانهم ، ودمر مقدساتهم . كما أوقف تيار استخدام غير المسلمين فى الوظائف ، وأعاد فرض الجزية عليهم ، وكان جده أكبر قد رفعها عن كواهلهم . وقبض على حكيم « السيخ » وشيخهم وأمره باعتناق الإسلام ، ثم قطع رأسه عندما رفض تغيير ديانته .

أرضى السلطان المسلم ربه . . . ولم يرض رعاياه . . فهل لو أرضى رعاياه ، أيًّا كانت ملتهم ، لما رضى عليه ربه ؟ ورعايا أورانجزيب كانوا مسلمين سنيين وشيعة ، وكانت الغالبية من شعبه هندوساً وجائينا وسيخاً . . أما الشيعة فحاربهم فى الدكن ، كما واصل حروبه فى الجنوب ثلاثة وعشرين عاماً دون أن يعود إلى قاعدة ملكه .

أبعد ضباط جيشه من الفرس الشيعة ، وكانوا قوةً كبيرةً . وأمر بهدم معابد « الكفار » ومدارسهم ، حتى معبد فشنو الكبير فى بنارس ، قدس أقداس الهندوس ، لم يتمكن من هدمه كله فبنى فى بطنه مسجداً رأيته بعينى رأسى على شاطئ الجنج محشوراً وسط أعظم المدن ازدحاماً بالمعابد الهندوسية ، وخاصة فى أعلا « الجات » وهى المنحدرات ذات

الدرج الهابطة إلى النهر ، تزدحم فى الفجر بالمئات ، وفى بعض الأيام بالآلاف ، يصلون إلى ربهم قبل طلوع الشمس ، حجاجاً أصحاء جاءوا يغتسلون فى نهرهم المقدس ، ويموتون على ضفة الجنج عجزةً وشيوخاً ومرضى ، فتحرق أجسادهم على شاطئه ، ويذرّ رمادها فى مياهه . رأيت مسجد أورانجزيب بعينى رأسى يناطح ويزاحم معابد الهندوس ، ويطل معها على قطاع من النهر بعدّ قدس أقداس ما ينوف على أربعة أخماس شعبه ورعاياه .

وأمر السلطان الصالح بأن تجر الأوثان من معبد فشنو فى بنارس حتى تبلغ أجرا ، فتدفن تحت درج مسجدها ، ليدوسها كل قاصد يطلب إلى الله الرحمة والغفران ويؤدى الفرائض .

احتشدت الغالبية العظمى من شعبه أمام أبواب حصن دلهى الأحمر . . . ولعنت السلطان ، ونشبت الثورة فى أنحاء السلطنة . بدأت بغضب « الماراتا » ، الشعب المسالم الزارع فوق المنحدرات الغربية (الجات) فيما بين مدينة جوا ونهر جودا فارى . وقام منهم الزعيم سيفاجى المتعصب لهندوسيته ، أسوة بسلطانه المسلم ، فأثار فى « الماراتا » نخوة القتال . وكانوا أشبه بالرومان القدامى يعرفون كيف يتخلون عن الفأس والمحراث ليحملوا السلاح فى ساحات الوغى .

وثار الراجبوت والزط والسيخ وغيرهم فى الشمال والشمال الغربى ، وهزموا جيش أورانجزيب . وانتقل إلى الرفيق الأعلى محيى الدين محمد سلطان المغول المسمى أورانجزيب فى مدينة أحمد ناجار عام ١٧٠٧ تاركاً دولة مزعزعة ، لم تلبث أن تفككت إلى إمارات .

أوصى بأن يدفن تبعاً للسنة ، فلا يصرف على كفنه سوى ما كسبه بيده من حياكة القلانس . وأن لا يغطى نعشه بغير قطعة من قماش الشراع والخيام . وترك للفقراء ثروته الخاصة ، ثلاثمائة روبية هى كل ما كسبه من نسخ القرآن الكريم .

ولم يمض عشرون عاماً على وفاة السلطان الطيب الصالح حتى كانت أوصال إمبراطورية المغول تنهار من جراء وحشية جهانكير ، وسرف شاه جيهان ، وتعصب أورانجزيب .

وقبل انقضاء قرن على وفاته ، خضعت أسرة المغول للوصاية الإنجليزية (سنة ١٨٠٣) .

* * *

انتهيت من فذلكة سريعة لتاريخ الإسلام فى الهند حتى دخول شبه القارة فى طاعة دولة أوربية ، تسربت إليها عن طريق شركة تجارية ، شرت وباعت حتى استشرى نفوذها ، وانتهت . . . بالسطو على زبائنها وعملائها !

وأعود إلى ما كتبه أستاذ هندوسى عما حققه الإسلام روحياً فى الهند . أنقله عن كتاب أصدرته منظمة اليونسكو عام ١٩٥٣ بالإنجليزية وأشرفت على نشره لجنة من الخبراء كانت مصر ممثلة فيها ، وعنوانه « **أصالة الثقافات ، ودورها فى التفاهم الدولى** » :

« قدم الإسلام للفكر الهندى : التّصوف ، وكان يمثل أرفع درجات الفكر الدينى والتجربة الروحية عند المسلمين . لقد أقام المتصوفة – من أمثال رابعة العدوية ومحيى الدين بن عربى – مذهباً مؤلفاً من عناصر الحب والجمال والتأملات والأفكار الفلسفية العميقة ، استؤلفت من الأفلاطونية الجديدة (على يد ذى النون المصرى خاصةً) ومن « **الفيدانتا** » الهندية (على يد العراقى منصور الحلاج) التى يظهر فيها تعبير أهل الفيدا « آهام برهمان أسمى » أى : أنا الروح السامى للعالم . ويبدو أن الحلاج التقط هذا التعبير فى خلال إقامته بالهند حوالى عام ٩٠١ م . وبهذا يمكن القول بأن « **الصوفيانيات طريقات** » نجحت بلطفها أكثر من « **التركانا طريقات** » بعنفها ، فى نشر التفكير الإسلامى بالهند ، والتقريب بين الإسلام والهندوسية على أساس صوفى . »

ولو لم تقم فى أسرة المغول دولة السلطان أكبر لما حدث التقارب الذى أتاح مبادلات نافعة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الهندية فى الفنون والآداب والعلوم .

ليس من حقنا أ أن نحكم على تكييف إنسان لعقيدته مادام مقيماً عليها ، مخلصاً لها عاملاً بأوامرها ونواهيها . أما أن ينسحب صدق عقيدة الحاكم على ظلم رعاياه ، وغالبيتهم الكبرى فى الهند من غير المسلمين ، فإنه يتحمل تبعة ما يعانى ملكه من متاعب .

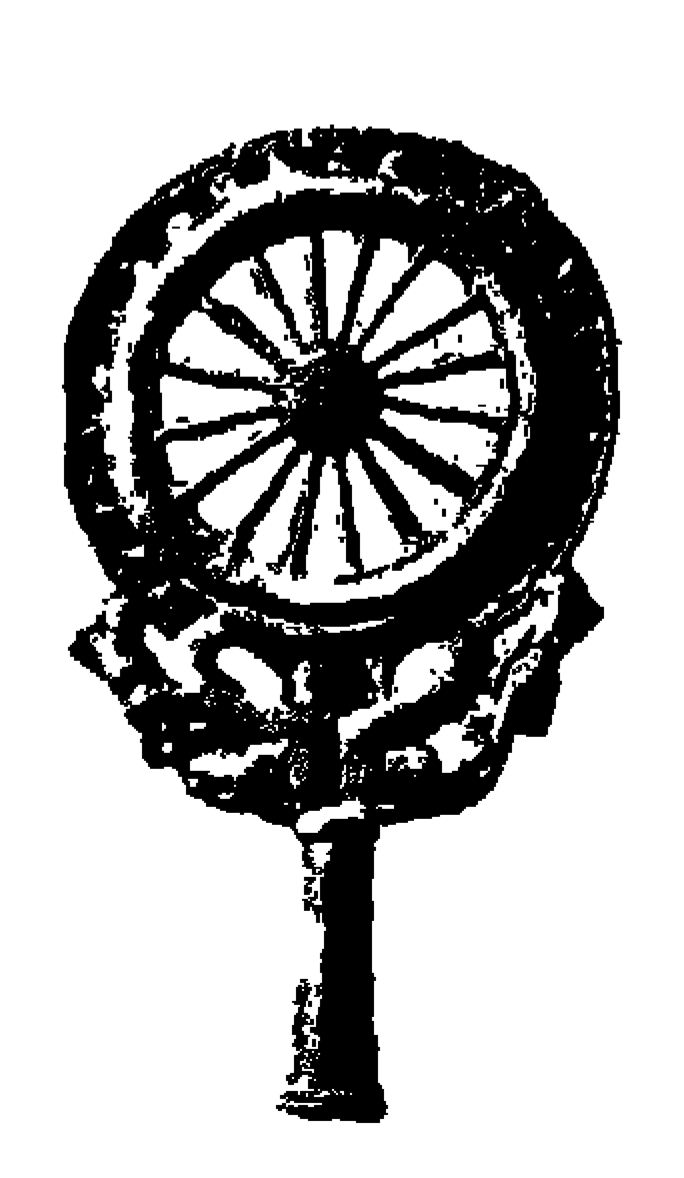
هذه الإمبراطورية الإسلامية التى لا يدانيها فى تاريخ الهند الطويل سوى إمبراطورية

البوذى «أشوكا» الذى بذل فى التبشير بدينه أقصى جهده ، دون أن يفرضه على رعاياه ، أو يتعسف بمن لا يتبعه ، أقول : **هذه الإمبراطورية الإسلامية الشامخة ، التى يقر لها المؤرخون من مسلمين وغير مسلمين بما أدته لمجموع القضايا والمنجزات الفكرية والمادية التى تمثل الحضارة ، قد انتهت بالتفكك والانحلال من داخلها ، نتيجة قصار النظر ، وضيق الأفق ، وبخاصة فى حكم محيى الدين محمد أورانجزيب بن شاه جيهان وممتاز محل .**

كنت أعرف بعض هذه الحقائق وأنا عائد إلى مدينة أورنجاباد (نسبة إلى هذا السلطان) من رحلتى إلى كهوف «إيللورا» ، وقال لى الدليل ونحن نخترق مدينة دولت أباد : هل نقف عند قبر أورانجزيب ؟ فلم أتردد ، مع شعورى بالإجهاد بعد زيارة أثرية طويلة ، فى أن أقف بالقبر الذى يفرض عليك احترامه لبساطته وتقشفه ، بعد ما رأيت وعرفت فى مدافن همايون وأكبر وشاه جيهان من بذخ وعظمة وجمال .

وشىء لم أصنعه أمام قبور هؤلاء ، أديته فى هذا المدفن : **أقرأت ساكنه السلام ، ثم تلوت الفاتحة ترحماً على السلطان المؤمن القانت ، الفقير إلى ربه تعالى محيى الدين محمد المعروف بالسلطان أورانجزيب .**

أديت واجبى نحو مسلم أرضى ربّه ، والسلام .



وعورة الطريق إلى الهندوسية

«إلهى ، إن عبدتك خشية جهنم ، إحرقنى بنارك .»
«وإن عبدتك لبلوغ الجنة ، احرمنى من جنانك .»
«وأما إذا عبدتك لذاتك ، فلا تحرمنى من جمالك الأزلى .»

رابعة العدوية

عندما كنت أكتب عن رحلتى الهندية الأولى ، حاولت بجهد كبير أن أتفهم الهندوسية من خلال كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة فى العاقل ، أو مرذولة» للمفكر العلامه الإسلامى العظيم ، أبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، فتعثرت خطاى . وقد عزمت فى رحلتى الأخيرة أن لا أعود إلى ذلك الكتاب الهائل إلا بعد إعداد كامل لفهمه . فانصرفت إلى قراءة عدد من كتب علماء الهند ومستشرقيها ، أسترشد بها لأكتب عن الهندوسية ، قبل العودة إلى أبى الريحان ، وإذا بى أواجه الصعوبة نفسها التى واجهتها فى البيرونى ، وقد كشف لى الهندولوجيون عن متناقضات الهندوسية ، وغريب منطقها . وهذا بالإضافة إلى طبيعة فى نفسى غير طَيِّعَة للقراءات الفلسفية . فما بالك والمتمرسون بالفلسفة يضطربون ، وتختلف آراؤهم كلما تعمقوا التعليل والتفسير لكتب الهنود المقدسة .

وأعترف بعد شهر من قراءة عدد من الكتب المطولة والمختصرة ، من تأليف الهنود والأوربيين ، بأنى لم أتمكن من الاجتماع على فكرة موحدة ، رائقة واضحة للهندوسية .

اكتشفت أن الهندوسية ليست ديناً بالمعنى الذى نفهم ، وإنما هى طريقة فى الحياة ونظام اجتماعى ودينى لا يشبهه شىء فى ديانات ناحيتنا من العالم . والهندوسية لا تعنى بتوكيد جزافى لطبيعة الخالق ، ولا تحس فى صميمها بأنها ملزمة بالاعتماد عليه ، ولا يهمها أن يكون واحداً أو ثلاثة أو أكثر عداً . وأن يكون الهندوسى موحداً أو مشركاً أو

ملحداً ، فليس هذا مما يعنى « طريقة » الهندوسية فى شىء !

وترد فى كل الأحاديث عن الهندوسية كلمات « أرجوانية » أشبه بمفتاح الأسرار فى كتب اليازرجة . يحرص الهندولوجيون الأوربيون على استعمالها فى صيغتها الأصلية باللغة السنسكريتية ، ويحاولون تفسيرها فى أكثر من كلمة ، وربما فى جملة .

وأول هذه الكلمات « دْهارما » وتدغم الهاء فى الدال الساكنة فتنطق « دارما » (كما نقول غاندى ويكتب « جاندهى ») ، ومن معانيها الأساسية : شريعة ، وتمتد إلى الأسس التى تبنى عليها كلمة قانون وضعى أو سماوى .

فما هو القانون أو الشريعة التى تحكم المخلوقات كافةً ، بل الكون كله ؟

وهنا تبدأ صعوبتنا مع الهندوسية ، وهى « المركب الدينى » الذى يمارس حتى الوقت الحاضر منذ أربعة آلاف عام على وجه التقدير . وهذه الممارسة الطويلة على امتداد شبه القارة الهندية بمختلف نحلها ولغاتها ، ومستوى فهم شعوبها ، لم تترك لهذا « المركب » فرصة للثبات والتماسك ، لا سيما وأن العقلية الهندية لديها استعداد كبير للتبحر ، وخاصة التبحر الفلسفى فى سر الوجود . ويمتدح الهندوس « مركبهم الدينى » لعدم تمسكه بما يمكن أن يوصف بالعقيدة أو الدين . فالعقائد عندهم ليست « كتاباً » ثابتاً ، وإنما هى صور متغيرة من حقيقة تعلو على التعريف الكلامى والتقنين ، ولذلك يصعب عليهم بل ويدهشهم شىء اسمه « رباط العقيدة الثابتة » ، وقد أدرك بعض هذا أبو الريحان البيرونى عندما لاحظ أن الهندوس لا يتنازعون فى الإلهيات ، ولا يرهنون أرواحهم وكيانهم المادى فى الجدل والمناظرة .

نعم إنهم متفقون على فروض أساسية فى مركبهم الدينى . أولها فكرة « التناسخ » ، فالروح (أو النفس) تنتقل من الميت لتعود إلى ذاته فى لبوس جديد ، وحياة جديدة ، أرفع أو أوضع شأناً من سابقتها ، تبعاً لفعال صاحبها إن خيراً وإن شراً . ويسمون هذه الحركة « للنفس » الخاصة على مدى الأزمان بين أجساد تحرق وأجساد تخلق : **« كارما »** أو **« كارمان »** وتعنى « الفعل » الذى يتخذ طريقه المقرر فى التناسخ : وهذا التحرك ذاته يسمى **« سامسارا »** .

شريعتهم ، أى « الدارما » لا تعرف بداية ولا نهاية ، لا فى كينونة الفرد ، ولا فى

كينونة الحياة . كل شيء مقيد بأصفاد الزمن ، ورباط الرغبة والتوق . والزمن عجلة (دولاب) تدور على نفسها دون هدف ، وحيوات المخلوقات كافة أسيرة هذا الدوران ، لاخلاص لها منه .

ويتبع هذا أن يسعى الفرد بكل قواه الروحية نحو الخلاص من « دولاب الزمن » . ويعتقدون اعتقاداً صارماً بإمكان هذا الخلاص ، ويسمونه « **موكشا** » ، وإن اختلفوا فى وسائل الخلاص ، ولكن على أساس فروض ، منها : أن الكون محكوم بالزمن الدائر ، وأن النفس الفردية محكومة بالعلة والمعلول .

ومجموعة هذه الثوابت تضعنا أمام مصطلح آخر وهو « **البراهمان** » ومعنى هذه الكلمة فى النصوص القديمة هو **القدسية** . **والبراهمان** هو الرباط الذى يربط الإنسان بكل ما هو أزلى . **والبراهمان** هو حال النفس التى تخلّصت ، **والبراهمان** هو مصدر ظواهر الحياة . **والبراهمان** هو الحلقة التى تربط بين العالم المتغير «سمسارا» ، وبين الفضاء والزمان ، والعلة والمعلول .

فإذا قلنا بأن الهندوسية عقيدة ، فهى فى مجموع البراهمان والدارما والموكشا والسمسارا ، والكارما ، وليس فى أية واحدة من هذه شيء يمكن التعبير عنه بالرب المعبود !

ولم يبلغ الهندوس هذا « **المركب الدينى** » إلا بعد أحقاب ، وفى أولها وأقدمها كانت « الفيدية » نسبة إلى أقدم وأقدس كتبهم . « **فالفيدا** » هى سجل الأناشيد التى كانت ترتلها العشائر الآرية الزاحفة من الشمال على أرض الهند . فى عصور واغلة فى القدم . ويستدل من هذه الأناشيد على أن تلك العشائر لم تجئ أقواماً من الهمج ، بل كانت لهم آلهة أشبه بآلهة الأغريق . « والفيدا » مقسمة إلى مجموعات أهمها « الريجفيدا » وتحتوى على نيف وألف نشيد ، ألفت على مدى القرون وجمعت فى الألف الأولى قبل الميلاد ، يمكن متابعة تطور الأفكار فيها ، وتطور الأرباب الموجهة إليهم ، باعتبارها أشعاراً للعبادة . وأول الأرباب « إندرا » ، وكان إله حرب وغزو يقود عباده وسط الجبال والوهاد ، وخلال الأعاصير ، ولم يدم سلطان « إندرا » طويلاً . أما « فارونا » فهو رب السماء وحامى النظم الأخلاقية ، ويختفى هو أيضاً فى مئات السنين التى نشأت معها

«الريجفيدا» ويبدو التفكير الديني وكأنه لم يتوقف عند نظم اجتماعية ، بقدر ما كان يبحث عن شيء أبعد ، وذلك بالتأمل العميق فى نظام الكون وماهيته ، ومعناه . وكلمة **«فيدا» تعنى المعرفة والعلم ، مما يفيد بأن العقلية الهندية كانت تهدف إلى الكشف عن سر الوجود ، لا إلى البحث عن رب يطاع بالحب والتقوى .**

لن نجد فى الكتاب العاشر للريجفيدا أناشيد وصلوات تستنزل منّة أرباب ، وتطلب عطاءها ، وإنما هى تساؤل مباشر : أى رب نعبد ، ونقدم له القرابين ؟ وهو الترجيع الشعرى الذى يتردد فى نشيد سماه العلامة ماكس موللر **«إلى الرب المجهول»** . **ثم لا تلبث** الإجابة أن تجىء فى **«نشيد الخلق»** :

«لا عدم ولا وجود ، لا عالم الهواء ولا سماء . فما هو الغطاء ، ومن أين جاء ؟ ومن وفى وتوقى ؟ وهل كان ثمة ماء ؟ أعماقاً تحت أعماق ؟

«لا فناء حينذاك ولا خلود ، ولا فاصل بين ليل ونهار . كان ثمة غمام ، وكان كل شيء غارقاً فى ظلام ، هيولى «وكاؤس» دون بيان . لا شكل لما كان غير الفراغ .

«واكتشف الحكماء بفكر قلوبهم قرابة الوجود باللاوجود .

«من ذا الذى يعرف ؟ ومن ذا الذى يقرر متى تخلّق ؟ ومن أين يجئ الخلق ؟

«فالأرباب إنما جاءوا فى أعقابه هو . فمن ذا الذى يعرف متى كان البدء ؟

«هو الأصل والبدء فى هذا الكون ، سواء هو الذى خلقه أم لم يخلقه .

«هو ، من عينه تحكم الدنيا من عليائها ، هو العارف العليم .

«ولعله غير عارف ولا عليم !»

وتنحلل الأرباب كلها فى ختام **«الريجفيدا»** وتتحول إلى خيالات وظلال :

«روح الخالق ، بذرة الخالق ، هذا الرب يريم فى الأزل كيفما يروم .

«مسموع الصوت ، لا تراه العيون ، فلنرفع تقدماتنا إلى هذا الهواء الذى نعبد !

وتنتهى الريجفيدا فى نشيد يصور الإنسان القديم باحثاً عن الإيمان ، ضالة الهندى المنشودة على طول القرون .

«أيتها العقيدة ، هبينا الإيمان !»

وهكذا تحولت الوثنية متعددة الأرباب إلى غائية آحادية ، ثم إلى الصورة المثلى

لوحدة الوجود . فالرب والطبيعة بجماداتها واحيائها شيء واحد ، وما الكون والإنسان سوى ظاهرة من ظواهر الذات العليا .

وفى حقبة تالية تتوطد الاتجاهات الموحدة ، وينتهى خلاص النفس من الزمان والمادة ، إلى عبادة الرب ، أو الأرباب التقليدية للهندوس ، وعلى رأسهم « **فشنو** » و « **شيفا** » **وفى هذه** الحقيقة يمكن اعتبار « المركب الدينى » مستقراً فى نفوس معتنقيه .

ويدخل إلى هذا المركب عنصر جديد ، هو نظام الطبقات الصارم : « **البراهمة** » أرفعها ، ومستودع أسرار الملة ، وصاحبة طقوسها ومراسيمها وشعائرها ، فمنهم الكهان الفقهاء والعلماء . ويليهم « **الكشاتريا** » ، طبقة الملوك والأمراء والمحاربة . وتحتهم « الفيشيا » وهم التجار وأصحاب المال ، و « الشودرا » ، ومنهم الزراع والصناع . فرض « البراهمة » على كل الطبقات ضروب العبادات ، وقرروا طقوسها لكل طبقة ، لا يهم بعد أدائها أن يكون للفرد رب واحد ، أو أرباب ، أو لا رب !

وفيما بين القرن السادس والثالث قبل الميلاد تسود نصوص « **الأوبانيشاد** » ، ولم يعد لآلهة « القيدا » الحساب القديم . **والأوبانيشاد تنشد النفس فى جوهرها ، ومدار التفكير هو ماهية الإنسان فى « نفسه » ، وماهية الكون فى « نفسه » وكان هذا تفكير من انتحوا مكاناً قصياً فى الأحراج والآجام وكهوف الجبال . يغرقون فى تأملاتهم ليبلغوا طريق الخلاص من دورة التناسخ المفزعة** . لم يبلغوها متفردين متوحدين فى نسكهم ، بل مجتمعين وقد شابت رءوسهم ، وشهدوا فى المجتمع أبناءهم وأحفادهم ، قبل أن يهجروا الأسرة والولد ليتفرغوا إلى بحث الوجود فى جلساتهم . ويبدو أن كلمة « **أوبانيشاد** » مكونة من فعل « يجلس » . ويحس قارئ الأوبانيشاد بأن حكماءها يقدرون معنى السكوت ووزن الكلام . فهناك من الأسئلة ما لا يلقى الجواب عنها إلا مسارة من الشفة إلى الأذن .

« **والأوبانيشاد** » تدور فصولها حول « **البرهمان** » و « **الأطمان** » وقد اكتشف النساك والعباد أن « **البراهمان** » (= الكينونه والوجود) هو « **والاطمان** » (= النفس) ، شيء واحد ، وكلمة السر فى « **الأوبانيشاد** » هى : « **أنا البراهمان** » و « **أنت هو ذاك** » (تات تقام آشى ، فى الأصل السنسكريتى) .

والخلاص من دورة التناسخ (= **سمسارا**) هو عودة «**الأطمان**» (النفس) إلى «**البراهمان**» وتلاشيها فيه حيث تصبح «**تات تفام آشى**» (= هى ذاك) :

«**كان الزمان قد أوفى منتهاه ، والأزل قد بدأ مبتداه .**

«**ولكن ما هو الأزل ؟ إنه : لا ، لا . فاقد المفهومية فلا سبيل إلى مبتغاه !**»

لقد بلغ المفكر الهندوسى فى خلائه منطقة الصمت ، صمت المتصوف ، كما عرفها أفلوطين «**لا ينطق بها ، لأنك إن نبست بشىء عنها ، حولتها إلى شىء بعينه**» .

يقول الحكيم لزوجته وهو يتأهب للرحيل واستقبال حياة النساك : أنا تارك لك يا حبيبتى كل ما أملك . تسأله الزوجة : خبرنى يا سيدى ، لو أن الأرض ملك لى ، هل أنال الخلود ؟ أجابها : سوف تكون حياتك حياة الأثرياء . ولا أمل فى الخلود لذى مال . تقول الزوجة : وما أصنع إذن بمالا يبلغنى الخلود ؟ حدثنى يا سيدى عن علمك بالأزل . » ويجيبها الزوج فى ترجيع شعرى طويل بما يمعن فى ارتباكها .

وتختم الأوبانشباد الرابعة بقول الزوج :

«**الأزل هو «نفس الكون» ، وصيغة هذه النفس أنها : لا ، لا ، الأزل فاقد المفهومية فلا سبيل إلى فهمه . قيوم لأنه حى لا يموت ، طليق لأنه غير مصفد ، ولا يتألم ولا يخيب . ما سبيلنا يا حبيبتى إلى معرفة العليم ؟**»

* * *

وفى الحقبة التالية لعصر الأوبانيشاد ، تفتح الهندوسية لعقيدتها عالماً جديداً بظهور كتابها الثالث «**الباجافاد جيتا**» ، عقيدة لا يربطها بالماضى سوى الإحساس بوجود الرّب القديم «**فشنو**» وقد حلّ فى «**كريشنا**» فاتسع نفوذه وسلطانه ، وخاصة فى الشمال .

واجتمعت فى مذهب «الفشنوية» حركتان ، إحداهما التفت حول المحارب كريشنا ، أى استقرت فى المجتمع المتحرك ، والأخرى انصرفت إلى تأملات النساك فى الآجام .

ويظن أن تجميع «**الباجافاد جيتا**» قد تم فى القرن الثانى قبل الميلاد . والجديد فيها أنها تمثل الانفعال الدينى الحىّ حول «**البهاكتى**» (تنطق الباكتى) ومعناها «**العقيدة الواقعة**» أو «**التقوى القانتة**» . ويفسرها قول كريشنا : «**سلّم القوانين كلها ، ولذ بى وحدى أغفرلك من ذنوبك ما تقدم وما تأخر ، فلا تحزن !**» . وتقول «الجيتا»

كذلك : « **أيا كان عملك ومأكلك وأضاحيك وتقدماتك وتقتيل جسدك ، فإنك واهبها كلّها لى** »

بهذه « **العقيدة الوامقة** » أو بهذا القنوت الشخصى هبطت الديانة من عليائها البرهمانى إلى كافة الخلق . لم تعد وقفاً على البراهمة ، وسراً مغلقاً يحفظونه . وفتحت باب الخلاص لآخر الطبقات . . **إذ صرحت بأن « الكارما » (= الفعل) لم يعد قيداً على البشر . كل فعل يؤتى بروح التفانى ، كل عمل خالص من التوق والشهوة ، كل بذل وخدمة دون أنانية ، طريق لتحرير الإنسان** .

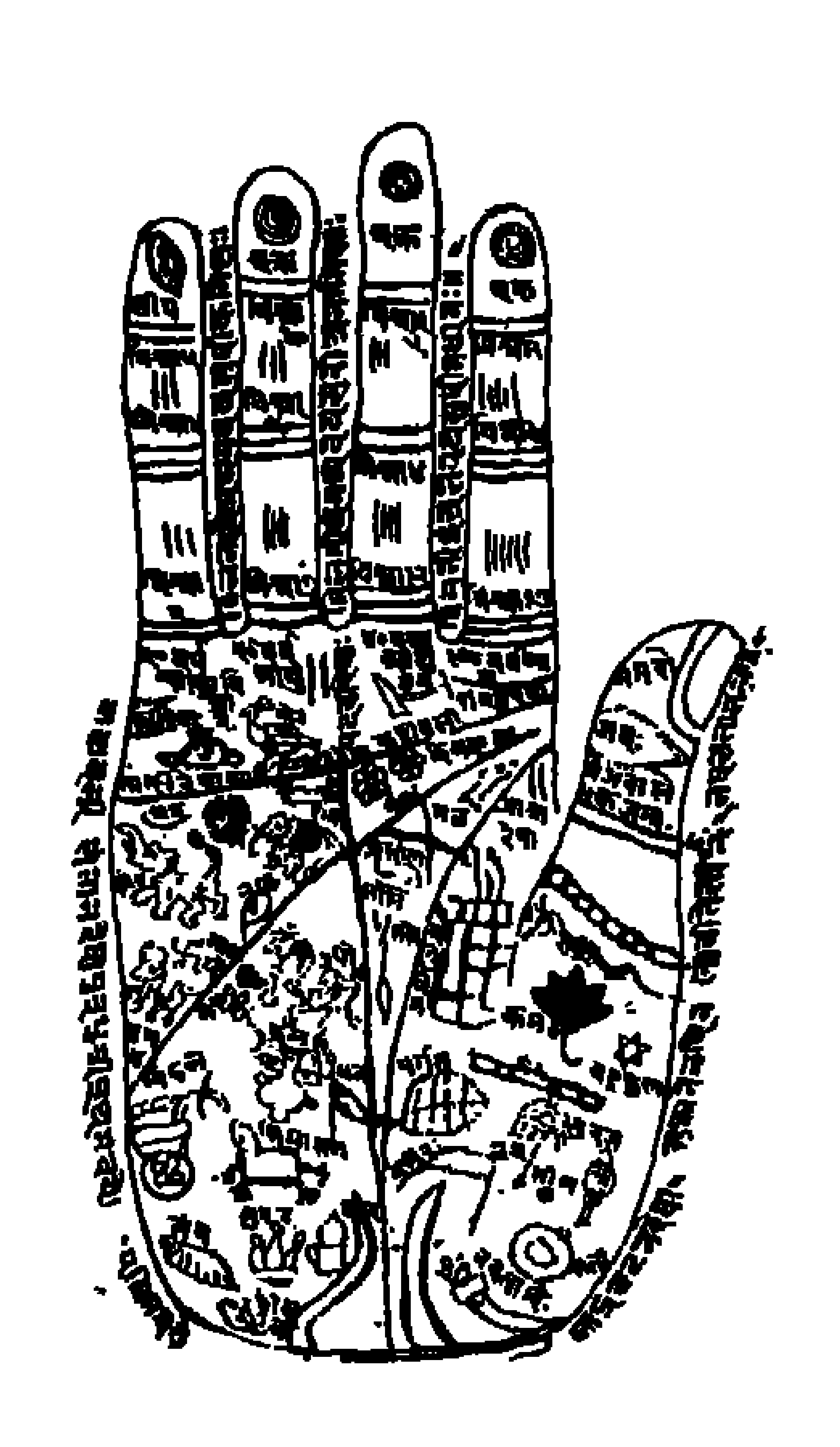
وقال كريشنا « لأرجونا » بطل ملحمة « المهابهاراتا » وهو يتأهب للمعركة ، ويتحرج من تقتيل أهل له وأقرباء : « **إلق بكل فعالك وأعمالك علىّ ، إدفع عن نفسك الحرج والقلق وقاتل** » .

ومن تعاليم « **الجيتا** » التى لا تتفق تماما مع « **الباكتى** » ما يعرف « **بالسامكيا** » وفيها يتلمس الخلاص بالعلم والتحصيل . بينما فى « **اليوجا** » يتجه إلى الرّب فى تجرد ونسك وتقشف .

« **والباجافاد جيتا** » هى النبع الفكرى الصافى للهندوسية . مجموعة أشعار تتضمنها ملحمة « المهابهاراتا » التى يبلغ عدد أبياتها سبعة أضعاف « الإلياذة » و « الأوديسية » معاً . وتحتوى على كثير من المجادلات الدينية ، وهى صورة للهندوسية بكل متناقضاتها . وهذا بطلها « أرجونا » يقف أمام معضلة من معضلات « الدارما » (= شرعة القانون) ، حين يضطر رغم إرادته ، وضد حكمه الصائب أن يقترف أعمالاً خاطئةً (هى قتال بعض الأهل والأقارب) ، إطاعة للرّب كريشنا الذى يقول له **بأنه لن يقتل فى المعركة سوى الجسد ، فالنفس أزلية ، وبما إن « نفس المحارب الذى يقتل فى ساحة الوغى تصعد مباشرة إلى السماء ، فإن أرجونا إنما يؤدى لمن يقتل من أقربائه فى صفوف الأعداء أجل خدمة بتخليصهم من سجن الجسد** .

ثم إن أرجونا باعتباره من طبقة الكشاتريا ، أى المحاربة تفرض عليه « دارما » طبقته أن يقاتل .

وأخيراً ، إذا تردد فى القتال رماه أعداؤه بالجبن . أما إذا دخل المعركة فإنه يخرج منها غير خاسر : فإما أن يقتل فتصعد نفسه إلى السماء تواً ، أو أن ينتصر فيرث الأرض وما عليها !



سكة الصدامة

«هل لإنسان عاقل – عاش عمراً كافياً ، وتأمل قيمة الوجود ، أن يهتم بالعودة إلى الحياة ، هذه اللعبة الرخيصة ؟» .

إمانويل كنت

كنت أحتار ، وأنا صبي أنصت لحواديت جدتي ، عندما يقف الشاطر حسن أمام عقدة اختيار الطريق الذى يوصله إلى ست الحسن والجمال : سكة الندامة ، وسكة الصدامة ، وسكة اللّى يروح ما يرجعش !

ويقول الصبي فى شيخوخته : قد تعنى سكة الندامة أنها المسلك الذى ينتهى إلى لا شيء فيورث الندم . ولكنه لم يفهم إلى اليوم ما هو طريق الصدامة ، إلا أن يعنى تلقى الصدمات ، والإصطدام بالعقبات التى تفرض على البطل اجتيازها وبقلب ثابت حيال الأهوال . أما «سكة اللى يروح ما يرجعش» فهى تفسر نفسها بنفسها ، واضحة التيه على الأقل ، إن لم يكن فيها نهاية كل شيء .

عادت هذه الأسطورة إلى الذاكرة ، وأنا أتهيأ لاتخاذ طريقى إلى فهم الهندوسية ، فاخترت سكة الصدامة ، وتجنبت الطريق الثالث لأنى فيه لا محالة ضائع . وليس هذا مجرد صورة كلامية ، فإن وراء هذه الفصول القليلة مطالعات فى ديانات الهند تستغرقنى إلى درجة كبيرة . وما أكثر الليالى التى أغمضت فيها عينى بعد قراءة فى « الباجافاد – جيتا» أو فى «الأوپانيشاد» . ولا جدوى من محاولة فهم الهند المعاصرة وهى تخطو فى العصر الصناعى نحو المقدمة فى ثقة واعتداد ، إلاّ أن نرفع طرفاً من النقاب عن حياتها الروحية .

كل ما صنعت أنا فى طريق الصدامة هو تجنب الصعاب وتلافى الصدمات ، وذلك

بطريقة الطيران المنخفض فوق عباب الهندوسية مكتفياً بتأمل أمواجها . . . من علٍ .

خذ مثلاً كلمة «**بهاكتى**» التى عبرت بها عبور الكرام عندما تناول حديثى أشعار وحكم «الجيتا» وقلت إن الجديد فى تطور العقيدة هو الكلمة السنسكريتية التى تعنى العقيدة الوامقة أو التقوى القانتة وتنطق «باكتى» . ولأفسرها هذه المرة بأنها مثل قولنا «**الرب محبة**» .

و«الباكتى» دخلت «الجيتا» بعد ما حل قشنو الرب القديم فى كريشنا ، وتتحدث أساطير «الرب — الإنسان» كريشنا عن أنه نشأ وسط رعاة البقر ، وعندما شب ، غازل بنات الرعاة «الجوبى» فتيمن به حباً .

أسطورة رمزية مثل الكثير غيرها فى حكايات الهند ، تشير إلى العشق الإلهى أى عشق النفس (الروح) للرب كريشنا ، وعشق كريشنا لها. وفى هذا الهيام تستسلم النفس لربها ، فنرى كريشنا يتحول من صورة المعلم الفيلسوف فى «الجيتا» إلى صورة الراعى العاشق اللعوب بلوف بالنفس ويأسرها بألحانه على الناى .

سرت هذه الحركة بين عباد : فيشنا فى الجنوب — مثل حركة مماثلة فى عبادة شيفا — صرخة العاطفة الجياشة ضد طقوس البراهمة المتحجرة ، وتزمتها البارد . والفضل الأول فيها للباجافاد — جيتا التى أثارت حركة التحول من التصوف القائم على التقشف المضنى والتخلى عن الدنيا ، إلى عقيدة عاطفية مؤسسة على التسليم الواثق للرب . ولعلها الصدفة أن يجئ هذا التجديد فى وقته لإعداد «دارما» (= شريعة) الهندوس لمجابهة قوة الإسلام .

ولسنا فى هذه الناحية من العالم بحاجة إلى وصف للإسلام ، دين أغلبيتنا الساحقة . ولمن طالع ما كتبت فى فصول سابقة أن يتصور اقتحام الإسلام لهذه العقائد المتفلسفة التى تتردد بين الوثنية المغرقة ، والعبادة الشخصية لرب من الأرباب ، وتقوم على محاورات وحكم وأمثال وتعقيدات ، على النقيض من بساطة الإسلام وصراحته . **وقطعاً لسنا بحاجة هنا للقول بأن الإسلام صخرة ثابتة لا تقبل تجزئةً ولا تفتيتاً . وكل من يطالع كتاب «الملل والنحل» للشهرستانى وغيره يعرف أن مجرد الحيدة ولو همسة عن القرآن**

والسنة واجتهاد الأئمة ، يخرج صاحبها من رحاب السنة ، وفى رأى : يخرجه من الإسلام طراً .

بينا الهندوسية «مركب دينى» عتيق تطور على كرّ القرون ، وتقبل واستألف وهضم وتطور بفعل الأحداث ، والثورات العقائدية التى خرجت عليه ، وعنه ، مثل البوذية والجائينية ، وستخرج عنه عقيدة «السيخ» بعد الالتقاء بالإسلام ، وغيرها من مذاهب ترفض الوثنية ، والشرك ونظام الطبقات .

كان أكبر أثر للإسلام بعد الغزوات العربية الأولى لبلاد السند أن انتهى هذا الإقليم إلى أغلبية مسلمة . ولكن بمجرد أن قامت بالغزو عشائر أواسط آسيا التركية المسلمة ، المشهورة بتعصبها العنيف ، اتخذ الصورة التى عرفناها فى محمود الغزنوى ، وأسرات الغورى والمماليك والخلجى والتغلق إلخ .

ويمكن الاعتذار عما جرى فى غزوات العشائر التركية بأن التعصب للإسلام جعل أهله يتمسكون بالفصل بين الكتابيين المنصوص عنهم . وبين عبدة الأصنام . مما يفسر المذابح والاضطهاد والتخريب والهدم الذى جرى على أهل الهند .

إنما المواجهة الفعلية جاءت بعد ما استقر ملك الإسلام ، واتسعت رقعته فى شبه القارة الهندية على أيدى الأسرة المغولية (وهى فى الحق تركية أكثر منها مغولية) . وقد عرفنا فيما سبق محاولات السلطان أكبر الفاشلة عندما حاول تجميع الأديان فيما وصفه بالدين الإلهى . كما عرفنا بامتداد إمبراطورية أورانجزيب إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة (١٦٩١ م) . وكيف أثار عنفه وتعصبه شعب «الماراتا» بزعامة شيفاجى المتعصب للهندوسية تعصباً استغله فى مقاومة المغول .

كل هذه نتائج سلبية ، وإنما جاءت النتائج الإيجابية فيما أشرت إليه مما وصفه الأستاذ الهندوسى «بالطريقة الصوفيانية» . ومن الصدف أن الرجل الذى دفع بالفكر الإسلامى إلى صميم الهندوسية يحمل اسماً قريباً من اسم السلطان أكبر ، وهو **الشاعر «كبير»** . ولقد اختلف الرواة فى أصل هذا الشاعر والمقول أنه ولد لأم برهمانية وأب مسلم ، وكانت الحكومات الإسلامية المتعاقبة قد وفقت إلى دخول عدد من الهندوس طوعاً فى الإسلام ، وبخاصة من الطبقات الدنيا ، كالمنبوذين ، عرفوا للإسلام فضائل

المساواة ، وبساطة عبادة الواحد القهار .

تحول الشاعر «كبير» عن الإسلام إلى الهندوسية ، ولكنه رفض منها الوثنية والشرك ، والطبقية . والعجيب أن «كبير» يسمى ربه الواحد «رام» ، مشتقا من اسم «راما» بطل ملحمة «الرامايانا» وقد ارتقى فى «أفاتار» الحلول الهندوسى إلى واحد من أحب أربابهم . ويتساءل عالم إنجليزى كيف يختار «كبير» اسم «رام» لربه . ويعتقد العالم الألمانى الإنجليزى تسينر أن «كبير» هندوسى . **وعندنا نحن السنيين يمكن اعتباره أى شىء إلا أن يكون مسلماً . وإن بقيت له شيعة إسلامية هناك ، وشيعة هندوسية لا علاقة لها البتة بالأولى .**

وهناك شخصية هندوسية أخرى تمسكت بالتوحيد ، ونبذت الطبقية ، وهو الجورو (شيخ الطريقة) نانك (١٤٦٩ - ١٥٣٨) منشئ ديانة السيخ . وقد جمع الخامس من خلفائه ، «الجورو أرجون» ، كتابات نانك وخلفائه ، وضم إليها بعض كتابات كبير ، وغيره من فقهاء الإسلام والهندوسية فى كتاب السيخ المسمى «آدى - جرانت» . وكان السيخ يؤلفون فرقة معتدلةً مسالمةً إلى أن استدعى السلطان أورانجزيب شيخهم أرجون هذا وخيره بين الإسلام والسيف ، ففضل الموت على ترك ديانة هو إمامها ، وجامع كتابها «المقدس» .

وكانت هذه الواقعة بدء العداء المستحكم بين السيخ والمسلمين ، وكان آخر شيوخ السيخ هو جوبند سنج (العاشر) ، ولم يترك خليفةً . ويحكم عقيدتهم فى الوقت الحاضر كتابهم ، **ولا يعتبرون من فرق الهندوسية بحال .**

ونعود إلى الحركة التى أثارتها «الباكتى» فى داخل الهندوسية ، وقد بلغت أقصاها فى القرن السابع عشر ملتفةً حول كريشنا (الذى حل فى الرب فشنو) . وكان عباد شيفا هم أيضاً قد وصلوا إلى «الباكتى» وخاصةً بعد أن تداخل فيها عنصر «الشاكتى» ، أى عبادة المرأة ، زوجة شيفا ، وانتشرت الشاكتى فى البنغال . ومبدأ الحلول يجعل من شاكتى الأم الإلهة فى أشكالها المفزعة : «دورجا» و «كالى» وفى تناسخها الجميل : «اوما» أو «بارفاتى» .

وتتحرك الهندوسية تحركاً جديداً فى طريق الإصلاح ، وتجىء فى هذه المرة نتيجة

الاتصال المباشر بين الهند والأوربيين الحاكمين ، بعد سيطرة الإنجليز . وكان إصلاحاً دفاعياً ضد المبشرين الإنجيليين الذين انتشروا فى الهند البريطانية ، تحت حماية الدولة المستعمرة . وتطالعنا كتب التاريخ الإنجليزية بأن الحكم البريطانى لم يتدخل إلا بقدر فى الأحوال الشخصية للهندوس . وهذا نفاق ينسى فيه المؤرخ أن الدولة المستعمرة مسيحية . . . وبعثات التبشير إنجيلية .

والإصلاح حاولته فى أغلبه نخبة ممن اتصلوا بالحضارة الغربية . وإذا كانت حركة (الباكتى) قد فتحت أبواب الهندوسية لكل طبقات الهندوس فإننا لا ننسى أنها كانت حركة دينية ، لا اجتماعية .

بينما الإصلاح الذى ظهرت تباشيره فى القرن التاسع عشر كان من أثر يقظة الضمير الاجتماعى عندما أدرك المثقفون ضرورة تنقية الهندوسية مما لا يوائم التطور الحضارى . فأنشأ رام موهان روى (١٧٧٢ – ١٨٣٣) جماعة « البراهموسماج » وكان هذا الهندوسى قد شبَّ فى بيئة إسلامية جعلته يرفض عبادة الأوثان . وعندما وضع عقد تملك مقر الجماعة نص على أن لا يقام فيه رسم أو تمثال أو نحت أو نقش أو لوحة زيتية تصور منظراً أو « بورتريه » ، ولا أى نوع من « التشبيه » .

واستقر موهان عام ١٨١٤ فى كلكتا بعد أن تعمق دراسة « الأوبانيشاد » واستخلص منها الألوهية دون عبادة الأصنام . والتقى هناك بالمبشرين ، وقرأ التوراة والأناجيل ، وكانت هذه ظاهرة جديدة فى الإصلاح الهندوسى ، ظاهرة تقبل التعاليم الخلقية النابعة من « موعظة الجبل » ، دون قبول ألوهية السيد المسيح عليه السلام . والأعجب من هذا رفضه مذهب التناسخ . وقد عمل على التخفيف من المساوئ الاجتماعية التى تعتور ممارسة الهندوسية ، وإليه يعود الفضل فى إيقاف شرعية حرق الأرامل (١٨٢٩) . وتوفى منشئ البراهموسماج سنة ١٨٣٣ .

وتسلم الزعامة ديبندرانات طاجور رب الأسرة البنغالية الممتازة التى خرج منها الشاعر الغنائى والرسام رابندرانات ، والمصورون اباننددرانات وجاجندرانات وغيرهم .

وأوفد الزعيم الجديد بعثة دراسية إلى بنارس (أقدس مدن الهند) لتتعرف على ما يعتبر أساساً صحيحاً فى عقيدة « الفيدا » و « الاوبانيشاد » . وعادت لتقول بأن هذا

الأساس لا يتفق تماماً ومذهب الجماعة ، ويتعين أن لا تقبل هذه النصوص على علاتها ، ويجب الاعتماد على العقل والضمير وما يوائم « النور فى نفوسنا » . وكانت أول مرة فى تاريخ الهندوسية يتطرق الشك فى أن « الفيدا » منزهة عن الزلل . ولهذا أهمية بالغة ، فقد فتح باب الإصلاح على مصراعيه لمن جاءوا بعد ديبندرانات طاجور ، وأعظمهم المهاتما غاندى وقد نادوا بأن لا يقبل من كتب الهندوس المقدسة إلا ما يتفق وملابسات العصر الحديث .

ويكفى هذا تفصيلاً ، دون حاجة إلى متابعة ما قام به المفكرون فيما بعد وما انتهوا إليه من الطعن فى نظام الطبقات ، ومن حظر تزويج البنات غير البالغات ، وتحرير الأرامل من القيود المهينة ، ومنها منعهن من الزواج . هذا إلى تفتحهم للديانات السماوية ، واستخلاص فضائلها ، والحض على تعليم البنات .

ولم يمنع تفتح « البراهموسماج » من اعتبار المبشرين خطراً على العقيدة الهندوسية ، بل وعلى تماسك الأمة الهندية ، وإنها إذ تعمل على تقويم عقيدة الأجداد ، فليس معنى هذا أن تقضى على شرعة يعيش الهندوس فى كنفها منذ آلاف السنين . « **فأبوة الرّب ، والأخوة بين الناس ، والرفق بالمخلوقات كلها ، هى جوهر العقيدة السليمة .** »

ولا داعى لذكر ما صنعه فى هذه الحركات « راماكريشنا » ، « وفيفيكاناندا » مؤسس جماعة « راماكريشنا » التى ذاعت فى العالم ، وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومما لفت نظرى أن واحداً من هذا الفريق ، وهو « **سوامى ديانانداسراسفاتى** » ، اصطحبه أبوه ولمَّا يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلى معبد كبير ليقضى الليل وحده بمحضر شيفا . ويقول سوامى عن هذه التجربة : « **لا أستطيع التوفيق بين فكرة رب قادر يسمح للجرذان بالسعى فوق تمثاله ، وتدنيسه ، دون حركة احتجاج منه !** » .

وتبقى أعجب الحركات فى تاريخ الهندوسية ، وهى تكوين الجمعية الثيوصوفية التى أنشأتها **مدام هليناپتروفنا بلافاتسكى والكولونيل أولكوت** (كذا !) . اجتمعت فى نيويورك سنة ١٨٧٥ برئاسة الكولونيل وسكرتارية البلافاتسكى . وكانت هذه تزعم أنها على اتصال بقوى خفية فى . . . بلاد التبت ، وبأشخاص وصفتهم « بالأساتيذ » أو « المهاتمات » وسمتهم بأسماء تشبه العجمة الآسيوية مثل **قوت هومى موريا** إلخ . ولما ضاق

بها مجتمع نيويورك رحلت إلى الهند وسحبت وراءها الكولونيل . وبمجرد أن حل الاثنان فى أرض الميعاد أعلنا إعجابهما « خبطاً لصقاً » بكل ما هو هندى ، ومقتهما للمبشرين .

وانتهت الجماعة إلى فضيحة عندما اكتشفت جمعية البحوث النفسية اللندنية بأن الظواهر النفسية التى تجلت فى السيدة الملهمة . . . تدليس فى تدليس . وأثر هذا فى سمعة الثيوصوفية خارج الهند . أما فى بلاد « المغامرات الروحانية » ، فلم يهتم المتحمسون للجماعة بقضاء العلماء النفسيين . وألفت هلينا بلافاتسكى كتابين : «كشف النقاب عن أيزيس» و « المذهب الخفى » . قرأتهما مسز آنى بيزانت ، الاشتراكية الفابية الملحدة ، صاحبة برنارد شو وآل وب . فطار عقلها ، وسافرت على الطائر الميمون إلى الهند ، وقد أقنعها كتاب « المذهب الخفى » بأنها تناسخت من امرأة هندية قديمة ! ويغفر لهذه السيدة الفاضلة أنها كرست حياتها للدفاع عن الهندوس ، ورفع معنوياتهم ، والإشادة بعقائدهم دون تمييز بين الزبد والجفاء إلى درجة إحْراج المصلحين ذاتهم !

ولم تتأصل جذور الإصلاح والتنوير إلا على يد غاندى . وكان يجاهد بقوة الروح والصدق والإيمان فى جبهتين : جبهة تحرير بنى ملته مما كبلتهم به الطقوس والعادات والتقاليد البالية ، وجبهة تحرير الهند من الحكم البريطانى . وشاركه فى الجبهتين رجال مستنيرون صادقون ، مؤمنون بالحضارة الحية ، وعلى رأسهم الбانديت جواهر لال نهرو . ولولا هذا الزعيم العظيم لتاهت رسالة غاندى فى بيداء الغيبيات الهيولية . استطاع نهرو الربان الماهر أن يجمع شتات الإصلاحات الدينية والدنيوية فينشئ جمهورية الهند التى يحق لكل محب للحرية والديموقراطية فى الشرق والغرب أن يفخر بها ، وأن يشيد بالحوارى النابغة ، تلميذ موهانداس كرمتشاند غاندى الملقب بالمهاتما ، قديس الهند ، ونبى الوطنية ، الذى آلف فى روحه وتعاليمه بين « الباجافاد جيتا » و « موعظة الجبل » وصام صيامه الأخير ليوقف المذابح بين الهندوس والمسلمين فى الهند وباكستان . وأفطر على كوب عصير من يد المسلم مولانا أبى الكلام آزاد .

ومات مقتولا برصاصة شاب هندوسى متعصب .

موهنداس كرمتشاند غاندى

«كل ما فى هذه العوالم تحتويه الألوهية . تخل عن
العالم أولا ثم تمتع به ، دون أن تطمع فى ملك إنسان»
عن «الاوبانيشاد»

سئل غاندى فى أخريات حياته عما يعتبره روح الهندوكية . فأجاب استهلال أوبانيشاد الرب «ايشا أو بانيشاد» ، وترجمها على الوجه الذى نطالعه فى رأس هذا الفصل .

ولكى نفهم ما يعنيه هذا المطلع يتعين علينا أن نقرأ هذه الإبانشاد كلها التى تعب المفسرون فى شرح معانيها الغامضة . ويرى العلامة نكول ماك نكول ، من أشهر من ترجم هذه النصوص السنسيكريتية وعلق عليها ، بأنها تجرد العبادات بأنواعها ، هى وأعمال الخير ، من حتمية الثواب ، وأنها إذا كانت تؤدى فبشرط أن تتجرد من هدف أنانى ، مثل رجاء الثواب ، وأن يكون المفهوم منها إعداد المؤمن للمعرفة العليا ، ولا تتأتى هذه المعرفة إلا لمن يكبح نزعات النفس ونزواتها حتى يبلغ الطمأنينة والصفاء الروحى .

ومادام كل شيء من الربّ وإليه فلا مناص لك من التخلى عما لا تملك ، ولك أن تتمتع ، وتعمل بمعونة الله على كبح جماح الشر فى العالم .

وفى هذا يقول غاندى : «**أعلم أنى لن أعرف الله إن لم أصارع الشر وأجالده ، حتى ولو اقتضى الصراع فقد الحياة ذاتها ، وإيمانى بتجربتى المحدودة المتواضعة هو حصنى الحصين . وكلما جاهدت فى أن أتطهر ، شعرت بالتقرب من الله . وما أطهرنى عندما يكون إيمانى لا مجرد مدافعة صورية ، كالمشاع فى زماننا ، بل ينهض شامخاً كجبال الهمالايا ، ناصع البياض كالثلج يغطى قناتها**» .

عام ١٩٦٩ احتفل فيه بالعيد المئينى لميلاد موهنداس كرم تشاندى غاندى ، الملقب بالمهاتما [ماها – عظيم ، اتما – روح] ، وهو وصف ورد فى الاوبانيشاد للواصلين بالحب والعلم اللدّنى .

أنشد رابندرانات طاغور فى أول زيارة لحلقة غاندى فى أحمد أباد ، المعروفة باسم «اشرام صبارماتى» هذا النص :

«إنه الوحيد المنير ، فاطر كل شيء ، مهاتما ، يعرش فى قلوب الناس ، يشف عنه الحدس والحب والتأمل . من عرفه كتب فى الخالدين» .

كان غاندى متديناً صادق التدين ، قوى الآصرة بعقيدة آبائه وأجداده ، ولكن وشائجه بالضمير الإنسانى كانت أقوى ، فهو الباحث المطالب بالحق والعدالة ، دون تمسك بحرفية قوانين وضعية أو غيرها . وهو القائل : **«أنا مقترن بالهند لأنى اعتقد إعتقاداً جازماً بأنها تحمل رسالة إلى العالم . ولكن ديانتى لا تحدها تخوم جغرافية ، فإيمانى يسمو حتى على الهند ذاتها .**

«واعتقادى بكتب الهندوكية لا يطالبنى بقبول كل شطرة ، وكل كلمة فيها ، بحسبانها إلهاماً ربانيًا . أرفض الارتباط بأى تفسير ، مهما كان قدره من العلم ، إذا جاء مجانباً للصواب أو للحس الأخلاقى» .

ولأنه كان من الصلاح ، يمارس الفضائل التى يدعو إليها ، ويعيش فى مستوى الفقراء والمحرومين ، فقد تبعه قومه لا فى كفاحه السياسى فحسب ، بل فيما بذل «لتحرير» نفوس شعبه وأمته حسبما نادت به عقيدتهم القديمة التى أظلمتها ووكستها عادات فاسدة شقية . ولكنه حافظ على بناء الهندوكية إلى درجة دفاعه عن تقديس البقرة التى لم ترد فى تقديسها نصوص قديمة . إذ رأى فى تقدير حيوان لا حول له ولا قوة ، رمزاً لعبادة البراءة ، وحافزاً على حماية الضعفاء والمساكين .

تمسك غاندى بعقيدته فى أصولها الروحية ، فكان أن لم تعد الهندوكية بعد غاندى إلى ما كانت عليه من قبل : زالت المساوئ القديمة بل السوآت ، واختفت عادة حرق الأرملة مع جثمان زوجها ، وسقط الحظر على الأرملة أن تتزوج ، بله أن تعيش عيشةً المنبوذات ، يتطير الناس مما ينسبونه إليها من شؤم . ويتحيفون دنسها . وندر أن تزوج

البنات فى سن الطفولة ، وفتحت المعابد لطبقة المنبوذين ، وقد اصطفاهم غاندى ، ولقبهم «بالهاريجان» وتعنى «شعب الرب» . وقضى على الدعارة فى المعابد (بنات يكرسن راقصات للآلهة : «ديفاداسى») ، وتخربت الحواجز بين الطبقات ، ولو أن الزواج المختلط نادر بين أتباعها .

بعض هذا عرفته فى شبابى ، وإجلالى للمهاتما وفهمى لعظمته الروحية ليس ابن اليوم . بيد ان لقائى بالهندوكية فى الجنوب كان قاسياً (سنة ١٩٣٤) ، لأن ماشاهدته وعرفته فيها لم يتفق مع تصورى ، والروحانية التى تشع من كتاب الهند فى شعر «الفيدا» و«الباجافاد جيتا» و «الاوبانيشاد» ، وملحمتى «المهابهاراتا» و«الرامايانا» ، وتمثيلية «شاكونتالا» ، لم أر لها أثراً واضحاً فى ممارسة الناس هناك للحياة . ولعلى لو تلبثت طويلا فى تلك البلاد المترامية الأطراف ، لنفذت إلى صميم روحها ، لا سيا ونحن فى مصر كنا ننظر إلى الهند ، كما كانت الهند تنظر إلينا بتعاطف الشعبين الناهضين المناهضين للسيطرة البريطانية .

فقسوت على الهند حين قلت فى كتاب رحلتى (سنة ١٩٣٨) : «إنى معجب بغاندى وأمثاله من القادة الروحيين ، معجب بكل فكرة تطهر البشرية من الحماة ، ولكنى أفضل بلا تردد حضارة كالحضارة اليونانية ، أو ربيبتها حضارة أوربا ، لأنها حضارة وسط بين الروحية والمادية ، ولأنها حضارة تنادى بإطلاق العقل من عقاله ليفكر غير مقيد . ولأنها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولأنها تسعى إلى المساواة الاجتماعية ، وتهيئ للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة ليتمكن من أن يصبح عنصراً حياً فى بناء العالم ، يساهم فى تقدمه ، وينعم بآثار هذا التقدم .

«ولست أزعم بأن الحضارة الأوربية بلغت الغاية التى نادى بها المصلحون ، فليس لهؤلاء مع الأسف سلاح غير العقيدة والرأى الحر . بينما يسطو الرجال العمليون على نتائج قرائحهم فيسخرونه لأغراضهم . . .

«ولكنى أعجب إعجاباً بظاهرة واحدةٍ فى هذه الحضارة : التفكير الحر ، فهو الصمام الدائم تملك به تلك الحضارة إصلاح ذاتها بذاتها» . . . وضربت أمثلة على ما أداه التفكير الحر منذ صيحات «لوتر» و «هوس» واكتشاف جاليليو وكوبر نقوس ،

وتفكير ايراسم وروجربيكون ، ومناقشة سياسة الحكم بلسان مونتسكيو وروسو وفولتير ، وما كشف عنه العلم والعلماء من قوى البخار والكهرباء والمغناطيسية و «الإشعاعات» والبترول . وكيف ثار الفكر الحر بلسان الاشتراكيين ، وعلى رأسهم ماركس ، عندما شعر بعدوان السلطة التى استحوذت على كل هذه القوى برأس المال .

«أجل ، أنا معجب بروحانية المهاتما (الروح العظيم) ، معجب بخصائص الشرق الروحية ، أودّ أن أعيش بروحى مترفعاً عن الدنايا ، وأفهم صيحة الفخر تصدر عن أمين الريحانى : أنا الشرق ، عندى فلسفات وأديان ، فمن يبيعنى بها طيارات . ولكنى وقد عرفت بعض ما أحب أن أعرف عن الهند ، وعرفت بعض ما أحب أن أعرف عن أوربا ، أشد إيماناً بالغرب ، وحضارة الغرب . وأكرر قولى : مهما كانت الأخطاء التى ارتكبت ، فإن فضيلة هذه الحضارة أنها تملك أداة إصلاح ذاتية هى : الفكر الحر» .

لم أكن أدرى عندما كتبت هذا بأمر المناقشة التى جرت فى مطالع العشرينات بين طاغور وغاندى حول هذا الموضوع . ويطيب لى أن أحيط القارئ علماً ببعض ما جاء بها ، فهى تصور رجلين من أعظم رجالات الهند فى العصر الحديث : طاغور الشاعر الثرى المتباعد ، جميل الصورة ، جهورى الصوت ، فى مواجهة «الروح العظيم» ، النحيف المتواضع الفقير .

كانت نظرة طاغور إلى غاندى دائماً نظرة الشاعر إلى القديس . كتب طاغور وهو فى تجواله الطويل بأوربا : «دين غاندى فى عنقنا هو أنه أتاح للهند فرصة إثبات إيمانها بالعنصر الإلهى فى الإنسان وأن هذا الإيمان ما برح حيًّا . . «نحن بحاجة إلى القوة الروحية التى يمثلها غاندى ، وهو وحده القادر على تمثيلها أمام العالم» .

ولكن طاغور الشاعر كان «يمثل سفارة آسيا الروحية لدى أوربا» (رومان رولان) . وقد طالب الناس هناك بمساعدته على إنشاء جامعة عالمية «شانتى نيكيكان» : أى أنه ينادى بالتعاون بين الشرق والغرب فى طرف من العالم ، وإذا بغاندى — فى كفاحه السياسى — ينادى بعدم التعاون فى الطرف الآخر .

طاغور يقول : «كل ما هو عظيم فى الإنسان ملك لى . . . وأمنيتى أن تمثل الهند التعاون بين شعوب الأرض . . ومحاولة الفصل بين روح الشرق وروح الغرب هى فى

عرفى انتحار أدبى ، لأن العصر الحاضر يسيطر عليه الغرب ، ونحن فى الشرق ملزمون بأن نتعلم من الغرب . . . فشجب التعاون بيننا وبينه لا يؤتى سوى الفقر الفكرى ، ولا خلاص لأمة تقطع ما بينها وبين الأمم الأخرى » . ويعلق رومان رولان : (فطاغور يرفض احتواء الحضارة الغربية ، مثلما رفض جوته عام ١٨١٣ أن يطرح جانباً حضارة فرنسا وثقافتها ، فى وقت كانت بروسيا ، وسائر الإمارات الألمانية تتأهل للتخلص من نير نابليون . وفى الحق أن مذهب غاندى لا يقيم حاجزاً بين الشرق والغرب ، ولكن طاغور يعرف أن تفسير ذلك المذهب على هذا الوجه سوف يجىء حتماً مع تحرك القومية الهندية) .

يقول غاندى : « أنا لا أريد لبيتى أن يسوّر من جميع جهاته ، وأن تسدّ نوافذه . أنا أريد لثقافات الدنيا أن تهب على بيتى حرة طليقة . . . ولكنى أرفض أن تقتلعنى ريح أية ثقافة منها . . عقيدتى ليست عقيدة الانغلاق ، ففيها مكان لأقل مخلوقات الله شأناً . ولكنها محصّنة ضدّ صلف الكبرياء ، وكبرياء الجنس ، أو الديانة ، أو لون البشرة » .

أكد طاغور أن « حكماءنا فى قديم الزمان كانوا يبحثون عن الحقيقة ، ويدعون إليهم كل باحث عن الحقيقة . لماذا لا يصنع حكيم زماننا ، الذى يطالبنا بأن نعمل ، مثلما عمل حكماؤنا ؟ إن الأمر الوحيد الذى يصدره حكيمنا هو « إغزل وانسج » . أهذا إنجيل العصر الجديد ، عصر الخلق والإنتاج ؟ أفإن كانت الآلات الضخمة تمثل خطراً على المجتمع الأوربى ، ألا تمثل الآلات الضئيلة خطراً أكبر علينا ؟ » .

طاغور يوجس خيفةً من عدو متربص ، اسمه التعصب بأنواعه ، والجهالة والقصور والجمود والوخامة واللامبالاة . وغاندى لا يؤيد صديقه فى توجسه المتشائم .

يتحدث الشاعر عن رجال عرفهم فى أوربا خلصوا قلوبهم من نعرة القومية ليتفرغوا لخدمة الإنسانية . رآهم يمثلون أقلية مضطهدة بين الناس ، وهم قديسو العصر ، أولئك الذين « حققوا فى نفوسهم وحدة الإنسان » . أفتكون الهند وحدها هى التى تتلو كتاب السلبية ، ولا ترى سوى أخطاء الآخرين . وفى سبيل « السواراج » (الاستقلال الذاتى) تقيم كفاحها على الكراهية ؟

« إن الطير وهو يصحو فى الفجر لا يفكر فى الطعام فحسب ، لأن أجنحته تستجيب

لنداء السماء ، حنجرته تمتلئ بأغاريد الفرح تحية للصباح . والإنسانية الجديدة تنادى . فلتستجب لها الهند بطريقتها قائلة : «واجبنا الأول فى الفجر أن نسبح للواحد الأحد ، الذى يرزق مخلوقاته كافةً . لنضرع إليه سبحانه فى صلواتنا ، فهو المدبر الحكيم ، وهو على كل شىء قدير» .

يستجيب غاندى لصديقه «**الديدبان العظيم**» ويشكره بحرارة على تحذيره للهند من العثرات . وإنه لأمر جوهرى أن نقدر ونحافظ على حرية الروح .

«ولكن طاغور يطالبنا بالصبر ، ويرضيه أن يتحدث عن تغريد الطير ، وليس هذا وقت الغناء . على الشاعر أن ينحى قيثارته جانباً ، لأن البيت إذا كان يحترق ، فواجبنا جميعاً أن نحمل جرار الماء لنطفئ الحريق . والهند تحترق ، الهند تموت جوعاً لأن أهلها لا يجدون عملا يشترون بمقابله الغذاء . ليس أمام الشعب الجائع المتعطل إلا أن يعمل ويكسب ، والجوع هو الذى وضع فى يديه المغزل والنول .

«يرسم لنا الشاعر صورة الطير فى الصباح يصحو ليصدح محلقاً فى السماء . هذا طير نام ملئ المرىء فجرى الدم فى أجنحته . ولكنى رأيت طيراً هزيلاً لا يقوى على تحريك جناحه . والطير الآدمى تحت سماء الهند يبيت على الطوى فيزيد ضعفاً على ضعف . أعطه عملاً كى يطعم ، فمن المستحيل أن تسكن آلامه بقصيدة من الشاعر «كبير» .

ويرد طاغور : «**بلوغ الحكم الذاتى إن طالب بالحماس والعواطف الجياشه . فإنه يتطلب كذلك العلم والتدبير . يجب أن نهيب بجميع القوى الروحية للبلاد لتلبى النداء : علماء الاقتصاد يستنبطون الحلول العملية ، ورجال التربية يعلّمون ، والسياسيون يفكرون ويصممون ، والعمال يعملون . يجب أن يظل التعلق بالعلم حرًّا لا عائق له ، والعقل بمأمن من الضغوط الظاهرة والخفية .**»

وتختم هذه المساجلات بين عظيمى الهند بقول طاغور ، وهو يتفق فى هذا مع غاندى : «**لا سبيل إلى إثبات الإيمان إلا بالأفعال ، ورسالة الهند إلى العالم هى التضحية وأمنيتى أن تنمو روح التضحية وإرادة الألم . فى هذين حرية الإنسان الحقة . الغرب مؤمن بالقوة إيماناً لا يتزعزع ، وبالثراء المادى . فمها جدّ فى طلب السلام ونزع السلاح فإن صوت ضراوته هو الأعلى . ونحن فى الهند علينا أن نفضح هذه الحقيقة ،**

وبها لا نجعل التجرد من السلاح ممكناً فحسب ، بل نحوله إلى قوة إذا ما ثبت للناس أن القوى الروحية تتغلب على القوى المادية . ولن يثبت هذا سوى شعب أعزل . فتطور الحياة على الأرض أثبت أن المخلوقات أخذت تفقد صفائحها وذيولها وكماً عظيمًا من عضلاتها ، إلى أن جاء الإنسان الضعيف فتغلب على قوى الحيوان . وسيجئ زمان يثبت فيه شخص ضعيف عفيف أعزل أن وارثى الأرض هم الضعفاء . ومن منطق الأشياء أن المهاتما غاندى ، واهى الجسد ضعيف العدة سوف يظهر القوة التى لا تقهر لدى الأذلاء المغلوبين على أمرهم ، القوة الثاوية فى قلب الإنسانية الهندية المهضومة المحرومة . قدر الهند مرتبط بقوة الروح لا العضلات ، معركتنا هى معركة الروح من أجل الإنسانية ، وعلينا أن نحرر الإنسان من الشراك التى قيد بها نفسه . . وحينما نتمكن من تحدى الأقوياء والأغنياء وشاكى السلاح ، ونكشف للعالم عن قوة الروح الأزلى ، فإن منشآت المادة سوف تنهار كقصور من ورق . . حينذاك يحقق الإنسان الاستقلال الذاتى الحقيقى ، ونحن أهل الشرق المنبوذين ، علينا أن نكسب الحرية للإنسانية جمعاء».

استقلت الهند عام ١٩٤٧ بعد ربع قرن من هذه المساجلات ، وقام زعيم الهند الرائع ، البانديت جواهر لال نهرو ، أول رئيس لوزارة الهند المستقلة ، يستقبل الحرية فى البرلمان قائلا :

« كنا منذ سنوات طويلة على موعد مع القدر ، واليوم جاء الوقت الذى نتحرر فيه من وعد قطعناه على أنفسنا ، وقد لا يكون ذلك بصفة كاملة غير منقوصة إلا أنه تحرر إلى درجة كبيرة جدًّا ، فإن الهند منذ منتصف هذه الليلة ، والعالم غارق فى سباته ، تستيقظ للحياة الرحبة ، وستمر بنا لحظة لا يبيحها التاريخ إلا نادراً ، وذلك عندما نخطو من القديم إلى الجديد ، ونختتم حقبة من الزمن ، وتسترد الأمة الهندية صوتها بعد أن غلبت على أمرها طويلاً . وعلينا أن نأخذ على أنفسنا عهداً يبذل كل جهد فى سبيل الهند وشعبها ، وكذلك فى سبيل الإنسانية جمعاء» .

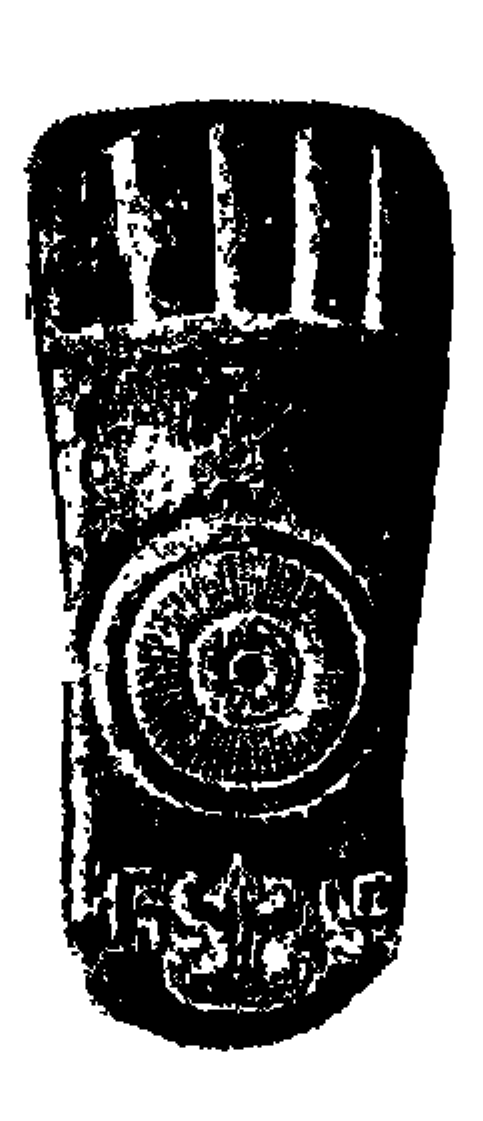
وعندما أصبحت الهند فى ٢٦ يناير ١٩٥٠ جمهورية ديموقراطية ذات سيادة ، كان الدستور قد أعلن عن المبادئ التى قامت عليها دساتير المملكة المتحدة ، والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وسويسرا ، وأعلن نهرو فى الجمعية التأسيسية :

«إن أذهاننا تطير إلى هذه المثل العظيمة ، ونحن نستهدف أن نتعلم من نجاح تلك الأمم ، ونتقى كبوات فشلها . »

ولكن غاندى ، نبى الوطنية ، روح المقاومة الباسلة ، كان قد ذر رماده فى النهر المقدس ، قبل هذا الإعلان بنحو سنتين . وإليك ماكتبه شاهد عيان يصف المهاتما وقد خرج من آخر صوم له كفارة فى سبيل السلام بين الهندوس والمسلمين ، وأفطر على كوب من عصير البرتقال قدمه إليه صديقه القديم ، الزعيم المسلم مولانا أبو الكلام آزاد (١٨ يناير ١٩٤٨) .

«مشى يوم الجمعة فى الثلاثين من يناير ، فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر . . . ارتقى بعض الدرج الموصل إلى سطيحة فى آخر الحديقة التى تحيط بصومعته ، فتقدم إليه ناثورام جودسى ، وهو شاب من متعصبى الهندوس ، انحنى أمامه ليتلقى البركة ، ثم أطلق عليه رصاصة أردته توًا . . وكانت تضحية غاندى إتماماً لرسالته . وقد أعاد السلام بين المسلمين والهندوس . . . ليس ثمة ختام أفضل ولا أكمل لحياة كانت كلها محبةً وتفانياً .

« لم يكن لهذا الإنسان مثيل فى عصرنا ، الإنسان الذى كان الناس عنده كأسنان المشط – كان من بين من عرفنا كافة ، الأحكم حكمة ، والأنقى فضيلة – مثلما كان يقال عن سقراط فى سالف الأزمان» .



صفحة من كليلاج ودمناج

(هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعه علماء الهند
من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما
وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا . . جمع حكمةً
ولهواً ، فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه) .

عبد الله بن المقفع

كان ياما كان فى قديم الزمان قط برى يسكن فوق شجرة بأدغال الهند ، وفأر فقير يأوى إلى جحر حقير ، اتخذه تحت الشجرة بين الجذور .

القط طهمان زمانه ، شامخ فى إبانه ، منتفخ الأوداج ، منتصب الشوارب ، نافر الفروة ، قائم الآذان . فلماذا لا نسميه «طهمان الزمان» ، لما فيه من شجاعة الفرسان ، مع طيبة وغباء ، مما لا نعهده عادة فى جنسه الأشقياء .

يعيش فى صيد ميسر ، يجده تحت مخالبه فى أوكار الطير : نص دستة بيض . . . أو أفراخ زغبة ، غاب عنها أهلها ، طلاباً لقوتها ولقوت عيالها .

ينظر من علاه . فيرى الفأر بحدة بصره عندما يتلصص خارج جحره ، فتذبذب شواربه كأوتار العود ، وينفش شعر أوداجه ، وترتجف شفته العليا . . . . وقد يتلمظ .

والفأر تبرق عيناه كالترتر خبثاً ، وذكاءً حاداً . . . . فهو العارف بجبلة «طهمان الزمان» الساكن فى قصور العلالى ، وما ورث من آبائه البهاليل ، وأجداده العناتيل ، من كلف بلحم الفيران وعظامها الرقاق ، يستطعمها بعد لعب وحشى يجد فيه رياضة صيد وقنص ، يتشبه فيها بالسلاطين والملوك من مصاصى الدماء ، وأهل السطو والسيطرة ، والأغلب أنهم وطهمان من فصيلة واحدة : وحوش غاب . ألعوبة القط والفأر قد تقصر أو تطول دون أن يغير ذلك من حتمية الوصول . . . . إلى ما بين المخالب الحداد والقواطع البيضاء .

سمع الفأر وقع أقدام إنسان صياد ينصب شباكه تحت الشجرة ليقنص ما يقع فيها من الحيوان . ويعرف الفأر بذكائه ونور عينيه– لماذا لا نسميه «**سفروت**» – أن لا خطر عليه من شباك لا تنصب لأمثاله من الضئال الأحقار .

خرج سفروت ذات ليلة يسعى ، فرأى عدوه المبين . . . داخل الشباك . أقرأه مساء الخير فرد عليه طهمان فى كبرياء واعتداد : **هذا أنت يابن الأجحار الحفار فى جذور الأشجار؟**

قال الفأر : **أتعرف كيف أحفر جحرى؟ هل رأيت أسنانى القراضة وأظفارى كالدبابيس ، وسرعة حركتى . . كل ذلك يصنع منى حفاراً قراضاً . . له صورة !**

قال طهمان الزمان : **وماذا يعنينى من أمرك . أتهتبل فرصة محنتى للتشفى ؟**

– بل لأعينك على الخلاص مما أنت فيه . فإن فوق الشجرة بوماً يتحين الفرص للانقضاض على ، وأحس بحركة نمس يتربص بى . . . . وقد جئتك ألتمس بين مخالبك الأمان ، إن رضيت بى الليلة ضيفاً .

–على الرحب . . دون السعة ، فالأحبولة كما ترى ضيقة ، وحبى لبنى جنسك مشهور .

– عرفته من نصائح أمى ووصاياها العشر . . كلها تستفتح ببنى جنسك ، وتختم بلطيف فطرتك .

– وعلى الرغم من كل هذا ، جئت تطلب حمايتى . . ؟

– لأننى يا مولانا خادمكم المطيع ، راض بأن تفتك بى ، ما شئت ، ولكنى آمل فى رجاحة عقلك أن تختار لك طريق السلامة . فأنت بين أن تستعملنى على قرض شباك محبسك ، أوأن تتبلغ من لحمى وعظمى بآخر (طقة) لك فى الدنيا .

وقرض الفأر ماجة الشبكة بسرعة البرق : قرضة هنا ، وقرضة هناك . . من قبيل العينة ! ولمح على الفور النمس يتأهب للانقضاض عليه ، والبوم وقد انحدر إلى أقرب غصن إليه ، فقفز إلى داخل الشبكة . واحتمى بين براثن عدوه الوراثى ، وتغلب طهمان الزمان على طبيعته ، وقد أدرك ببطء ذكائه أن خلاصه مرتبط بقوارض من وضع الرب سره فى أضعف خلقه . . . . ويحلها الكريم فيما بعد . . بفضله !

توقع السنور أن يبدأ الفأر تنفيذ الاتفاق على الفور. فأفهمه سفروت أنه لا يستطيع شيئاً حيال ابن عرس الذى حضر، والبوم وقد تأهب من فوق غصنه.

وبعد فترة انصرف النمس، ورجع البوم إلى غصنه الأعلى. فقال السنور للفأر:

- ماذا تنتظر يا صديقى؟

- ألم تسمع يارب السداد والحكمة، بأن فى العجلة الندامة، وفى التأنى السلامة؟

- ولكن صاحب الشباك قد يطب علينا فى أية لحظة!

- وهذا ما سوف أجنبك إياه فما أن تظهر تباشير الصياد، فى شقشقة الفجر الوردى فسأخلصك بقرضات سراع.

زام طهمان الزمان محتجاً، لطبيعة الشر والغدر فى نفسه، وقد كان يأمل أن يخلصه «صديق» المحنة فى لحظة تمكنه.... من افتراس صديق لم يعد بحاجة إليه.. إلا حاجة افتراسه. كتم غيظه، إذ لم يبق له على مضض، غير الانتظار.

وتكور سفروت وانكمش داخل فروة طهمان الزمان، وأخلد إلى النعاس فى دفء «صديقه» الكبير.

وما إن سمعا حركة الصياد حتى قرض الفأر فتحة واسعة فى الشبكة، اندفع منها السنور قفزاً إلى الأغصان، لا يلوى على.. فأر. ودلف سفروت إلى جحره الغويط، سعيداً بخلاصه من ثلاثة أعدائه... بقرضة معلم!

لم تقف الحكاية عند غروب الصياد عن أعين فريسته الهاربة، حاملاً شباكه المقروضة، لأن «طهمان الزمان» وقد عاوده الاطمئنان، نزل من فوق الأفنان، واقترب بخطى السنور حتى بلغ أشتوم الجحر، وتكلم بلسان معسول، ومواء التحية والسلام، يدعو سفروت لنزهة خلوية فقد عقدت بينهما أواصر الإخاء، بعد الليلة الليلاء، تعاونا فيها على الخلاص من نكبة.. نكباء.

لزم الفأر أعماق جحره، فقد علمته أمه، ودربته الأيام وعيشة الآجام على أن الحياة بين سكانها آكل ومأكول، وليس فى البحر وحده يفترس الكبير الصغير.

ونطق الفأر بالحكمة التى صاحبت حكايات الهند لتكشف عن الدرس الإنسانى، بل والدرس السياسى، حرصت البراهمة على تلقينه لأبناء الملوك:

الإخاء بين الأعداء ، فى زمان الضراء ، علاقة ضرورة ، تزول بعودة السراء .

أوكما قال عبد الله بن المقفع فى ترجمته للقصص الخالد على لسان جرذ سماه «فريدون» ، يلقى بالحكمة إلى سنور سماه رومى : «**رب صداقة ظاهرة ، باطنها عداوة كامنة ، أشد من العداوة الظاهرة ، ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذى يركب الفيل المغتلم ، ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل . وليس من أعدائى عدو أضرلى منك ، وقد اضطرتنى وإياك حاجة إلى ما أحدثنا من المصالحة ، وذهب الأمر الذى احتجت إليك فيه . ولا خير للضعيف قرب العدو القوى ، ولا للذليل قرب العدو العزيز . . . والعاقل من يصالح عدوه إذا اضطر إليه ، ويصانعه ويريه من نفسه الاسترسال إليه ، إذا لم يجد من ذلك بداً . . . . وأنا أودك من بعيد ، وأحب لك من البقاء والسلامة ، ما لم أكن أحب لك من قبل ، ولا عليك أن تجازينى على صنيعى إلا بمثل ذلك ، إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام !** »

ولو طالع الجرذ الغيب فى تاريخ الأمم لضرب للسنور الأمثال الطوال من المعاهدات بين الدول والأقيال ، تعرضها عليها وعليهم المصالح وتقضها المطامع . . . وأقربها فى زماننا معاهدة ستالين – هتلر فى أغسطس عام ١٩٣٩ ، التى لم يجف مدادها ، بعد هزيمة بولندا وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، وحصر إنجلترا فى جزيرتها ، حتى كان النسر الجرمانى يبقر بطن الدب الروسى . فلم يلبث الدب المثخن الغاضب ، حين تمكن من احتواء الطير الجارح الكاسر . أن نتف ريشه . وهشم منقاره ، ثم قطعه إرباً إرباً ونشر بقاياه شذر مذر. وإنتقلت الغطة الهندية إلى أوربا ، وانتهت على لسان لافونتين الشاعر الحكيم ، وقد ختم حكاية «السنور والجرذ» بأربعة أسطر من الشعر هذه ترجمتها :

قال السنور : **آه يا أخى ، تعال وقبلنى . أتحسبنى نسيت أننى بعد الله مدين لك بالحياة ؟**

ورد الجرذ : **وأنا ، أتحسبنى نسيت طبيعتك ؟ فأية معاهدة تلك التى تفرض على السنور عرفان جميل ؟ ومتى كان فى الإمكان الوثوق بعهد تصنعه الضرورات ؟**

* * *

كفيت القارئ بحثاً فى عقائد الهندوس ، وأرجو أن لا أعود إليها

واختزنت من آداب الهند فى حضاراتها القديمة – وهى بحرطام – ما بلغ سيله ، وأخصبت حكمته آداب العالم شرقاً وغرباً .

وحكايات «كليلة ودمنة» تأليف الفيلسوف الهندى بيديا – فيما يقال – لا سبيل إلى بلوغ أصلها مترجماً إلى اللغة البهلوبة ، التى ترجم عنها إلى اللغة العربية عبد الله بن المقفع هذا الكتاب المشهور. وكل ما نستطيعه الآن هو أن نتابع تاريخ انتقال هذه الحكايات إلى الآداب الشرقية والغربية من أصلها السنسكريتى ، عن طريق اللغة الفارسية الوسطى ، أى البهلوية .

وأول ما نحن بحاجة إلى تصحيحه هو النطق باسم الفيلسوف الهندى نطقاً صحيحاً . فهو « بيدبا » بكسر الباء ومد الياء وسكون الدال . وصحته أكثر من هذا هى « بيدبه » .

تقدير الهندولوجيين أن الأصل السنسكريتى وضع حوالى عام ٣٠٠م ، ولكن الحكايات أقدم من هذا التاريخ بكثير. والأصل السنسكريتى يعتبر مفقوداً . وأقدم نص هندى عنوانه «بانتشاتانترا» أى «خمسة سبل الحكمة» ، وعرفت له صورة أخرى بعنوان «هيتوباديشا» أى «**كتاب الرأى السديد**» .

وترجمة «خمسة سبل الحكمة» إلى اللغة البهلوية تنسب إلى بِرْزَويه ، طبيب كسرى أنوشروان. ودعك من التشكيل المستعرب فى نطق بِرْزويه «ومِسْكَوَيه إلخ» .

ترجمه إلى العربية عبد الله بن المقفع ، بأسلوبه الجزل ، وإيقاعه الهادئ البطئ ، فى عصر الخليفة المنصور العباسى . وعرفت للكتاب ترجمة سريانية ، نقلت عنها الترجمة إلى اليونانية فى القرن الحادى عشر ، ومنها إلى اللاتينية ، فإلى اللغات الصقلبية . وظهرت للكتاب صيغة تركية فى القرن السابع عشر بعنوان «**همايون نامه**» ترجمت عن نص فارسى من القرن الخامس عشر عنوانه «**أنوار اى سهيلى**» .

وظهرت ترجمة إسبانية بأمر الملك ألفونس العاشر القشتالى . وثمة ترجمة عبرية لربى يويل نقلت عنها ترجمات أوربية : لاتينية بقلم يوحنا من كابوا ، وأخرى لريمون من بزييه فى القرن الرابع عشر ، وألمانية فى الخامس عشر ، وإنجليزية فى السادس عشر .

وملحمة الهند الكبرى ، «**الماهابهارتا**» احتوت على الكثير من الحكايات والأمثال ، ضمن الإضافات الكثيرة لبعض الملحمة الأصلى فى اللغة السنسكريتية ، أضافتها

الأجيال من كل نبع أسطورى أو عقائدى دلاءً من الشعر لا قطرة ، وأكثر هذه وردت فى «الجاكاتا» البوذية ، التى تحتوى على حكايات ذات مواعظ .

ولقد جرت مناقشات طويلة حول أصل «**الحكايات – المواعظ**» ، هل هو هندى أم إغريقى (ايسوب) . ولنقل إنها مبادلات بين الحضارتين ، يغلب عليها العنصر الهندى .

والمعروف فى تاريخ الفكر الهندى أن مجموعة «البانتشاتانترا» تمثل دروساً فى السياسة وأصول الحكم وضعت لتربية الأمراء . وخاصيتها فى تشبيك الحكايات بالطريقة المعروفة فى كتاب «ألف ليلة وليلة» تميز الفن القصصى الهندى من قديم الزمان . وكتاب «**ألف ليلة وليلة**» الذى بدأ حول كتاب بهلوى «**هزار أفسان**» يرتد إلى أصل هندى .

وترجمة الطبيب برزويه للبانتشا نترا إلى البهلوية فى القرن السادس . نقلت كما سبق القول إلى السريانية حوالى عام ٥٧٠م بعنوان «**كليلاج ودمناج**» (وفى الأصل السنسكريتى «**كاراتاكا ودامانكا**»

وأول ترجمة فرنسية لكليلة ودمنة عن نص ابن المقفع قام بها سلفسترده ساسى فى القرن التاسع عشر. ويعترف شاعر الحكم والأمثال على ألسنة الحيوان ، جان ده لافونتين (١٦٧٨) بفضل بيدبا ويسميه بلبيه» قائلاً فى صدر الطبعة الثانية للحكايات والمواعظ : «**ولا ضرورة تلزمنى بأن أكشف عن مصدر هذه الحكايات الجديدة ، يكفى القول اعترافاً بالجميل ، أنى مدين بقسط كبير منها إلى الحكيم الهندى بلبيه**» .

وللمرحوم **عثمان جلال** ترجمة لأشعار لافونتين باللغة الدارجة شعراً بعنوان «**العيون اليواقظ فى الحكم والمواعظ**. وما أكثر ما طالعت هذا الكتاب فى صغرى بمكتبة والدى . ولم أترجم حكاية السنور والجرذ عن نص معين ، وإنما وضعتها بلغتى وأسلوبى ، عن قراءة فى كتاب «الفلسفة الهندية» للعلامة الألمانى **هاينريخ تسينر** ، وأشار إلى أنه يحكيها عن «**المهابهاراتا**» (النشيد الثانى عشر) .

وإتماماً لهذه المعلومات الشذرية التى قد تفيد من يعنيه بحث موضوع «كليلة ودمنة» بحثاً علمياً جاداً ، ألاحظ أن مطلع «البانتشاتانترا» كما جاء فى كتاب الأب **ديبوا**

الشهير عن «**سلوك وعادات واحتفالات الهندوس**» يختلف عن مطلعها فى ترجمة الأميريكى المعاصر آرثر رايدر (١٩٢٥).

فالأب ديبوا يبدأ بحكاية الملك شوكا داروشا ، ووزيره أماراساتى . وكان للملك ثلاثة أولاد أغبياء ، غير مهذبين . فأشار الوزير بجمع البراهمة للبحث بينهم عمن يستطيع أن يتولى تربية الأمراء الثلاثة . ولم يتقدم سوى واحد اسمه فشنو- شارما بدأ بدراسة حالة تلاميذه ، ثم أخذ فى سرد حكايات ذات مغزى . وأول أشخاص هذه الحكايات هم أسد يحكم وسط الغابة ، وثور اسمه «سانجيفاكا» وثعلبان فى خدمة الأسد أحدهما «**كاراتاكا**» والثانى «**دامانكا**» . . وتستمر الحكايات كما نعرفها على وجه التقريب فى ابن المقفع .

أما فى ترجمة الأميريكى رايدر فتبدأ بتفصيل طويل عن الملك وأبنائه الثلاثة الأغبياء ، وعقد اجتماع العلماء للبحث فى وسيلة لتقويم أولئك الأمراء ، ومقال الملك فى الاجتماع مدعّماً بالحكم والمواعظ الشعرية ، ويشير المجتمعون برأى واحد ، وهو البدء بتعلم أصول اللغة وقواعدها مما يستغرق اثنى عشر عاماً ، ثم دراسة كتب الدين فكتب الحياة العملية ، «**وكل هذا يوقظ الذكاء**» .

إلا واحداً من بينهم أشار على الملك باستدعاء البرهمى فشنو- شارما ليتولى تربية الأمراء . وبعد حوار طويل بين هذا العالم والملك . يسوق الحكيم تلاميذه إلى بيته ويحفظهم خمسة كتب من تأليفه ، أولها «**عمن فقد الأصدقاء**» وثانيها «**عمن كسب الأصدقاء**» والثالث عن «**البوم والغربان**» والرابع «**عن ضياع ما كسب**» والخامس «**عن عمل خطير**» . وهى الكتب الخمسة التى تعلم «**السلوك بذكاء**» وعنوانها «**بانتشاتانترا**» .

ثم تبدأ قصة الأسد والثور والثعلبين «كاراتاكا ودامانكا» ، وهما كليلة ودمنة فى العربية «وكليلاج ودمناج» فى السريانية ، أو فى البهلوية ، لاأدرى .

تلكم هى الحقيقة السامية عن الآلام

(وقال البوذا : إن أساء إلىّ بغباء ، أعدت إليه
الإساءة حبًا خالصاً . وكلما زاد إساءة زدت خيراً . عبير
الخير يعبق لناحيتى أبداً ، وسموم الشر تلفح المسىء) .

أول مدينة يممت شطرها بمجرد أن فض فوه مؤتمر الكتاب بعاصمة الهند ، كانت بنارس . لماذا ؟ لأن آخر خطاى فى الهند منذ سبعة وثلاثين عاماً قادتنى إلى بلدة راميشفارام لزيارة معبد « رامانانا سوامى » ، آخر الحجيج الهندوسى الكبير الذى يبدأ فى بنارس شمالى الهند ، حيث يملأ الحاج قنينة نحاسية من ماء نهر الجنج المقدس ، ويختمها بسدادة محكمة ، ويحملها حتى أقصى جنوبى الهند ، قرب رأس كومورين ، ليقدمها قرباناً إلى رب معبد راما ، بطل ملحمة « الرامايانا » الذى ارتفع إلى مرتبة الآلهة .

ومن مجموع مياه الحجاج يجرى البراهمة أول مراسيم الزينة للصنم بغسله قبل برقشته وتزجيج حواجبه وتدشينه . تباع القنينات صفراً بالرطل للزوار . ولقد ظلت واحدة منها فوق مكتبى سنوات طويلة تتلقى رماد التبغ ، وتذكرنى بآخر خطواتى فى الهند ، وعبورى من دانوشكودى إلى تلاى منار الرأس المقابل بجزيرة سيلان ، أى خروجى من أرض الهندوس إلى الجزيرة البوذية .

فى معبد راميشفارام شعرت بأثقال الوثنية القديمة ترزح على صدرى ، وأفزعتنى التماثيل المنحوتة فى أعمدة الجرانيت تحف بعرصات المعبد الهائل ، ممتدة إلى آخر ما يمتد إليه الشوف . وبعد ساعات من مشاهد الطقوس والعبادات المذلة ، والإنسانية المعذبة فى دورة التناسخ ، خرجت إلى النور ، وإلى البحر ، وعبرت إلى سيلان ، « **لانكا** » الهندوس ، و« **طبروبانى** » القدماء ، و« **سرنديب** » العرب ، واتجهت رأساً إلى أنورا دابورا العاصمة القديمة للجزيرة . وهناك وقفت بتمثال البوذا المتربع وسط الأدغال التى

غيبت المدينة بين تعريشاتها الكثيفة ، ثم انطلقت بعربة «الريكشو» إلى الشجرة التى نبتت من فسيلة الجميزة المقدسة بمحلة بوداجايا بأوريسا (شمالى الهند) .

كانت هذه الجميزة هى التى أقام جوتاما شاكيامونى فى ظلالها . وصحا ذات يوم من نوم طويل ، وقد نزلت عليه «الحكمة» . وإلى هذه الصحوة يرجع تلقيب جوتاما بالبوذا ، أى «الصاحى» بمعنى الحكيم .

وقفت حينذاك على مرتفع أرقب حمار الريكشو الآدمى يصلى للشجرة الالفية قانتا صاغراً . فأكبرت معنى العبادة ، أياً كان المعبود .

كنت أتهيب زيارة بنارس ، بعد أن بعثت نيودلهى الطمأنينة فى نفسى ، أتهيب خشية أن تعيدنى المدينة «قدس أقداس الهندوس» إلى فزعى من العباد الحجاج يمارسون طقوسهم التى صدتنى عن الهندوسية فى زيارتى الأولى .

لم أجرؤ ، حين وصلت إلى بنارس (وينطقها أهلها بناراس ، بفتح الباء) أن أتجول سائحاً منفرداً ، فلا يتعلق الأمر هنا بزيارة آثار أو متاحف فحسب ، بل بالاندماج فى حشود الحجاج والعباد وسط دروب ضيقة ، وأبقار سائبة ، ومعابد بالمئات أو أكثر ، حتى أبلغ «الجات» وهى الدرجات الفسيحة المنحدرة إلى ضفة الجنج ، ينزل عليها الحجاج للاستحمام والعبادة .

فما إن نزلت بالفندق القديم المجدد (يحمل اسم باريس) ، وسط الأشجار والأزهار وبساط من سندس حتى شاركت فى جولتين تنظمهما حكومة إقليم «أوتاربرادش» واحدة فى الصباح فاتتنى وأجلتها إلى الصباح التالى ، والثانية بعد الظهر .

حملنا الميكروباص إلى خارج بنارس ، وبلغنا بعد قليل مكاناً لم أتوقعه ، ولم أسمع باسمه من قبل : بلدة **صرنات** . كان آخر ما أتصور أن أبدأ رحلتى فى «قدس أقداس الهندوسية» بأقدس مكان فى تاريخ . . . البوذية . .

فى **صرنات** ، وفيما نقرأ عنه فى ترجمة البوذا باسم «**روضة الغزلان**» بدأ جوتاما شاكيامونى رسالته بعد أن نزلت الحكمة بساحته تحت شجرة البودى فى بودجايا بإقليم أوريسا . ورحل إلى بنارس ليلتقى برفاقه الرهبان ، ويدلى إليهم بما يعتمل فى روحه بعد صحوته ، وقد أصبح «الصاحى» ، أى «البوذا» : «**أيها الرهبان ، ماهو النهج**

الأوسط ؟ إنه الحقيقة السامية عن السبيل إلى وضع حد للآلام ، السبيل ذى المسالك الثمان ، صدق الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصدق الكلام ، وصدق السلوك ، وصدق العيش ، وصدق الاجتهاد ، وصدق الحكم ، وصدق التأمل .

« تلكم ، أيها الرهبان ، هى الحقيقة السامية عن الآلام : الميلاد عذاب ، الشيخوخة عذاب ، المرض عذاب ، الموت عذاب ، لقاء الشر عذاب ، وفراق ما نحب عذاب ، فوات ما نتوق إليه عذاب .

« تلكم ، أيها الرهبان ، هى الحقيقة السامية عن علة الآلام : الظمأ الباعث على العودة (= التناسخ) ، الظمأ الذى تثيره الشهوة واللذة الحسية . ظمأ مثلث الأسنة : ظمأ اللذة ، وظمأ الحياة ، وظمأ الثراء ،

« تلكم ، أيها الرهبان ، هى الحقيقة السامية تضع حداً للآلام : إيقاف هذا الظمأ تماماً ، بالتحرر منه ، بالاستغناء عنه ، بالقضاء على شهوات النفس .

« تلكم ، أيها الرهبان ، هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدى إلى إيقاف الآلام ، السبيل ذى المسالك الثمان : صدق الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصدق الكلام ، وصدق السلوك ، وصدق العيش ، وصدق الاجتهاد ، وصدق الحكم ، وصدق التأمل » .

مصدر دهشتى جهالة قديمة بمقام البوذية عند الهندوس ، فقد اكتفيت فيما مضى بظاهرة لم أعن بتحقيقها . وهى أن جوتاما شاكيامونى ، الأمير الهندوسى ، أدى رسالته فى شمالى الهند ، ونشر رهبانه هذه الرسالة فى أنحاء شبه القارة . وجاء أشوكا البوذى ، إمبراطور أسرة الموريا ، فوضع الرسالة فى كنفه وحمايته ، وأوفد بعوث التبشير إلى سيلان ، وإلى بلاد آسيا فى الشمال والشرق . **فلم يمض على رسالة البوذا ألف عام حتى بدأت تختفى ، وتزول رويداً عن الهند ، بينما عاشت ونمت ، وطبعت بطابعها الملايين فى سيلان ، وبورما والصين واليابان وكوريا ، وجنوب شرقى آسيا .**

لم أعرف لهذه الظاهرة تفسيراً . لأنى كما قلت ، لم أعن بالسؤال عنها ، وكنت عابر سبيل ، أنزل إلى بعض موانى الهند من البحر أياماً قليلةً ، لأعود إلى مستقرى بالسفينة العلمية المصرية « مباحث » تخرج إلى البحر الواسع .

كيف تختفى عقيدة نشأت من داخل الهندوسية البرهمانية بثورة عليها ، وانتشرت أول ما انتشرت فى الهند وثبتت فيها نيفاً وألف عام ، ثم انزاحت عنها فلم يبق منها — ما عدا قلة — سوى آثارها العظيمة فى طول الهند وعرضها ، وفى المتاحف الهندية والأجنبية .

لم أتصور أبداً وأنا ذاهب إلى بنارس أن يكون أول لقائى بضاحيتها . . . . مع مهد البوذية فى صرنات ! وأن أرى فى حفائر هذه البلدة التى أجراها سير ألكساند كننجهام عام ١٨٣٦ ، بقايا معبد بوذى «ستوبا» من أوائل ما أنشئ من نوعها فى آسيا . وأمامها عمود من عمد الإمبراطور أشوكا التذكارية .

وحين دخلت متحف صرنات الأركيولوجى الأنيق ، قضيت ساعة أو بعض ساعة أتأمل آثار البوذية فى مهدها . ومن بينها لوحة حجرية للبوذا المتربع فى جلسة المتحدث تتشابك أصابعه . من القرن الخامس الميلادى ، وتعتبر من أجمل صور البوذا ، وقد أرسلتها حكومة الهند لتزين صدر قسمها بمعرض أوزاكا الكبير . وتمثل جوتاما متربعاً فوق كرسى ذى مسند محلى بنقوش زخرفية . وفى حافتيه نحت بارز لحيوانين . وتحت الكرسى تماثيل صغيرة للرهبان الذين سحروا بأحاديثه فى «**روضة الغزلان**» ويتوسطهم «**دولاب الشريعة**» (**دارما تشاكرا**) ، وهى «العجلة» التى ترمز إلى دوران الفكر الدينى من أثر أحاديث البوذا . وفوق مسند الكرسى إطار دائرى عليه نقوش ذكرتنى بالنقوش التى رأيتها فوق درج من «حجر القمر» بآثار أنورادبورا . وفى ناحيتين من أعلى الإطار تمثالان لأرواح هابطة» من عل .

كل ذلك قطعة واحدة من الحجر المنحوت فى توازن كامل ، وإيقاع هادئ تؤكده جلسة البوذا السوية ، وارتخاء جفنيه العلويين ، وكأنه ينظر إلى حركة يديه . وفوق رأسه قلنسوة محببة ذات نتوء صغير من قمتها ، والأذنان الطويلتان يتدلى منهما قرطان يؤكدان التوازن ولطف الإيقاع .

وهأنذا أقلب البصر فى صفحات المجلد الكبير الذى أصدرته حكومة الهند بعنوان «**طريق البوذا**» فى مناسبة مضى ٢٥٠٠ عام على ميلاده ، واستعرض صور البوذا ،

المنقولة عن متاحف الهند وآسيا البوذية ، وأوربا وأميريكا ، فتؤكد لى أن لوحة متحف صونات من أكملها وأروعها .

وأصدرت حكومة الهند مع هذا المجلد المصور كتاباً تذكارياً أجيد تحريره بأقلام علماء الهنود الأعلام ، وقدم له فيلسوف الهند الأكبر ورئيس جمهوريتها الأسبق راداكريشنان . تناول المجلد أصول البوذية وتاريخها ، وحياة منشئها ، وقصة انتشارها فى الهند وخارج الهند . ومذاهب البوذية ، وآدابها وفنونها ، وتاريخ الدراسات الأجنبية عنها فى أوربا وأميريكا . وعنوانه « **٢٥٠٠ عام من البوذية** » .

لا عذر لى إذن فى جهالتى بحكاية زوال البوذية عن الهند ، حتى لم تعد تحسب ضمن دياناتها إلا لقلة فى البنغال وبعض أنحاء السند (الباكستان) . والواقع أن الهند الجديدة ظلت أمينة على ذكراها ، وتوقيرها .

والعجب العجاب بأن اختفاء البوذية من الهند لم تصحبه حروب دينية ومذابح كالتى حفظها التاريخ فى أكثر من مكان بآسيا وأفريقيا وأوربا وأميريكا .

معميات لا أفهم كيف تركتها دون بحث طوال هذه السنين .

فلنفتح كتاب البانديت جواهر لال نهرو الذى ألفه فى سجنه بقلعة أحمد ناجار (أغسطس ١٩٤٢ — يونية ١٩٤٥) :

« منذ ثمان أو تسع سنوات ، عندما كنت فى باريس ، طرح على أندريه مالرو سؤالاً غريباً ، فى أول لقائنا . سألنى : ما الذى مكن الهندوسية من أن تزيح البوذية عن الهند ، دون صراع كبير ، منذ نيف وألف عام ؟ كيف استطاعت الهندوسية امتصاص ديانة ذات شعبية واسعة الانتشار ، بغير الحروب الدينية التى تشوه تاريخ بلاد كثيرة ؟ ما هى الحيوية الداخلية ، أو القوة التى تملكها الهندوسية حتى قدرت على هذا الإجراء المدهش ؟ وهل الهند محتفظة إلى اليوم بهذه القوة والحيوية الدفينة ؟ إن كان ذلك شأنها ، فإن حريتها وعظمتها مضمونة مكفولة . « كان السؤال نموذجاً مثالياً لمفكر فرنسى ، وهو أيضاً رجل فعال وأعمال . وقل من الناس فى أوربا وأميريكا من يشغلون أنفسهم بمثل هذه الأمور . . .

« لم يكن سؤال مالرو مجرد استفهام أكاديمي . فقد كان مالكاً عليه حواسه ، انفجر ، تو لقائنا .

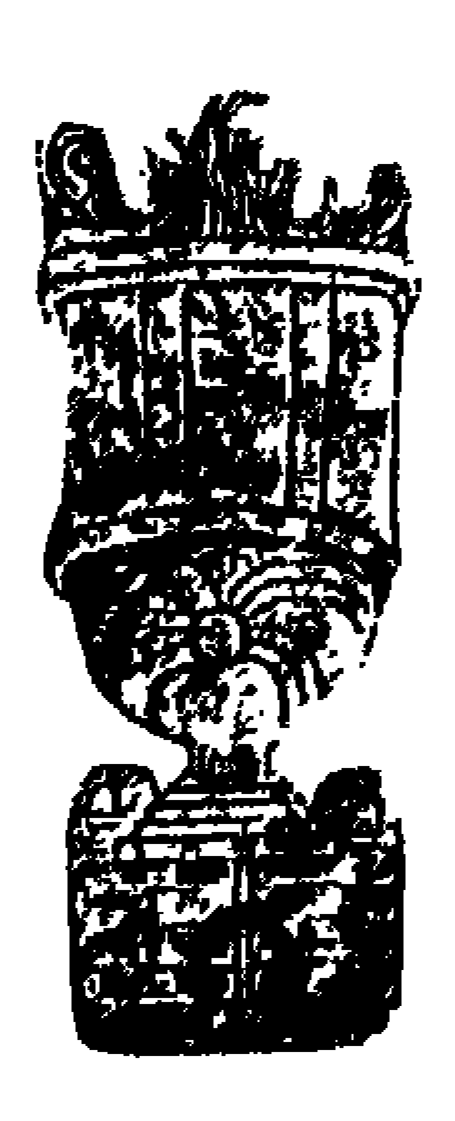
« ولم أك أعرف حينذاك جواباً عنه لنفسي ، ولا لمحدثي . . .

« واضح أن لم يكن ثمة إبادة عنيفة للبوذية فى الهند ، أو ممتدة الأطراف . . . هذا إلى أن البوذية لم تزحزح الهندوسية تماماً فى أى وقت . بل لقد ظلت هذه واسعة الانتشار . إنما البوذية ماتت موتاً طبيعياً ، أو أنها ذوت عندما تحولت إلى شيء آخر . وهنا يقول العلامة كيث « إن للهند قدرة عجيبة على استيعاب وامتصاص ما تستعيره وتحويله . وإذا كان هذا صحيحاً فيما يتعلق بالاستعارات الأجنبية ، فهو أولى بالصحة فيما نبع أصلاً من عقل الهند وفكرها . إذ لم تكن البوذية نتاجاً هندياً فحسب ، بل كانت فلسفتها فى مسار الفكر الهندى السابق عليها ، وفى فلسفة الأوبانيشاد . والأوبانيشاد ذاتها سخرت بكهانة البراهمة وطقوسهم ، وأضعفت من أهمية نظام الطبقات . وتبادلت البرهمانية والبوذية المؤثرات ، وكان من نتائج هذه المبادلة أن تقاربتا ، سواء من الناحية الفكرية البحت ، أو من جهة العقائد الشعبية ، على الرغم من تعارض المذهبين ، أو بسبب هذا التعارض « فمدرسة » الماهايانا « البوذية خاصة قاربت البراهمانية وأوضاعها ، وكانت مستعدة للتوفيق والتفاهم على أى شيء تقريباً . ما بقى عضدها الأخلاقى قائماً . أما البراهمانية فقد جعلت من البوذا « صورة تناسخ » (أفاتار) من الرب فشنو ، وضمته إلى مجمع أربابها . وكذلك فعلت الماهايانا (وهو المذهب البوذى الذى جعل من البوذا ، الإنسان التاريخى ، إلهاً معبوداً » . وإذا كانت الماهايانا قد انتشرت بسرعة فإنها أضاعت بعض خصائصها ومميزاتها فيما كسبته من اتساع مجالها . فقد حققت البيع البوذية الثراء ، وأضحت معقلاً للمصالح الذاتية الثابتة ، كما تخلخلت قواعد نظمها ، وتداخل السحر والبدع فى الممارسة الشعبية لطقوسها . وهكذا نال الانحلال من البوذية شيئاً فشيئاً بعد الألف الأولى من وجودها .

« جاءت بداية البوذية فى عصر إصلاح وإحياء روحى واجتماعى بالهند ، نفثت حياة مجددة فى الناس ، وفجرت ينابيع جديدة لقوى الشعب ، فأطلقت المواهب والقدرة على القيادة ، وانتشرت بسرعة حتى أصبحت ديانة الغالبية تحت حماية الإمبراطور

أشوكا . ثم عبرت حدود الهند . يحمل رسالتها فقهاء بوذيون . مثلما وفد على الهند بوذيون من الخارج . واستمر هذا التيار قروناً عدة . وبعد ألف عام من قيام البوذا . وفد على الهند الحاج الصينى فان– هين فى القرن الخامس الميلادى . وشاهد ازدهار البوذية فى أرض منبتها . وعندما جاء بعده بقرنين الحاج الصينى الأشهر يوان تشوانج (هسوان تسانج) . لاحظ علائم الاضمحلال . وحتى فى زمانه كانت البوذية محتفظة بقوتها فى بعض الأصقاع . بيد أن عدداً كبيراً من فقهاء البوذية «ورهبانها كانوا ينسابون من الهند إلى الصين . »

وفيما وصفه نهرو تلخيص طيب لما جرى على البوذية . ولنا عودة إليها لنتفهم مذهبها فى أصله الإنسانى البحت . وكيف حولها الشعب إلى وثنية صارخة» . بل انحدر بها إلى ضروب من السحر والبدع . والرموز والأحجبة والمندل (مندالا) . مما جاءت به كتب «التانترا» .



البوذية ثورة إصلاح من صميم الهندوسية

«كان البوذا رجلاً ، لا إلهاً . معلّماً لا مخلّصا . »

«رادا كريشنان»

تحدثنا فيما سبق عن « **الفيدا** » ديانة العشائر الآرية التى زحفت على الهند فى مطلع تاريخها . والفيدا أربع مجموعات (= **سامهيتا**) من أناشيد العبادة ، والتعزيم السحرى ، والتعاويذ الخاصة بالأضاحى . أهمها « **الريجفيدا** » . والمقدر أن « القيدا » جمعت فى الألف الأولى قبل الميلاد ، ثم وضعت لها شروح وحواش (٨٠٠– ٦٠٠ ق . م) تحدد الطقوس التى تطبق بها النصوص ، وهذه الشروح تعرف « بالبراهمانا » اختصت بدراستها وحفظ أسرارها طبقة البراهمة وحدها وتبدأ بها حقبة « **البراهمانية** » التى تصل بين « **القيدا** » و« **الأوبانشاد** » فى ديالكتيك معقد لا محل له فى هذه الإلمامات . تكفى الإشارة إلى أن البراهمانية – وهى الطبقة العليا – حولت القيدية إلى مجموعة من الصيغ كبلت الطبقات الهندوسية ؛ « **الكشاتريا – الفيشيا – الشودرا** » بطقوس وشعائر آلية .

ولقد نشأ فى القرن السادس قبل الميلاد مذهبان يعارضان أرثوذكسية البراهمة معارضة فعالة : « **الجائينية** » وصاحب رسالتها اسمه « **ماهافيرا** » ، ومافتئت قائمة فى الهند تعتنقها أقلية صامدة متماسكة .

والبوذية وقد عرفنا فى الفصل السابق ما جرى عليها حتى اختفت من الهند ، فيما عدا قلة ، ولكنها وقد نزحت إلى خارج الهند ، عرفت الأزدهار والنمو وأثرت على حياة الملايين من سكان آسيا .

وفى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ولد **سيد هارتا جوتاما** الملقب بالبوذا على الحدود بين النيبال والهند ، من أسرة « **شاكيا** » الحاكمة فى « **كابيلافاستو** » . هجر بيته

وزوجه وابنه الطفل ليعيش حياة النساك ، باحثاً عن مصادر آلام البشر ، وعن طريق الخلاص من دورة التناسخ ، أى الميلاد العائد إلى مالا نهاية .

قضى سبع سنوات فى التقشف والصوم ، حتى ضمر جسمه ، وغدا وكأنه جلد على عظم . ولم يحقق له الزهد شيئاً من صفاء الفكر ، وبلوغ ما هو بسبيله . فعدل عن الصوم والإغراق فى التقشف فتخلى عنه أخدانه واتهموه بالرِّدة ، وغدا وحيداً ، جواب آفاق حتى انتهى إلى محلة عرفت بعده ببلدة **بودجايا** ، لبث فيها زماناً يتفيأ ظلال جميزة كبيرة ، وينام فى حماها . وصحا **ذات فجر وقد انجلت بصيرته بنور العرفان** ، **ولقب منذ تلك اللحظة بالبوذا أى « الصاحى » بمعنى المستنير أو الحكيم . كما عرفت الجميزة بشجرة « البوذى »**

لاحظ أن النطق الصحيح للقب سيدهارتا هو « بدّاه » بتشديد الدال « والبَدّ » عند مؤرخى العرب انصرف إلى معنى « **الصنم** » فى لغتهم .

حدث هذا فى عصر شهد نشاطاً فى تحركات العقل الهندى نحو التحرر من أصفاد الطقوس البراهمانية ومن نظام الطبقات الصارم ، ونحو البحث عن طريق لإنهاء حلقة التناسخ بغير وسائل البراهمة – والحق أن **الأوبانيشاد** (٦٠٠ – ٥٠٠ ق . م) قد بدأت توحى بوحدة الوجود والأرباب ، ولكن البوذية لم تعترف لآلهة الفيدا بسلطان ، ولا لنصوصها بما يفيد .

وكان ما أشرنا إليه فى الفصل السابق من إعلان البوذا على ملأ زملائه النساك فى « روضة الغزلان » بضاحية بنارس ، مذهب الخلاص ، أوما صور فى تاريخ البوذية « **بإدارة دولاب الشريعة** »

دعا البوذا إلى التخلى عن الدنيويات دون إغراق . فخير الأمور الوسط ، بين متاع الدنيا وتقتيل الجسد . فالوسط هو المؤدى بمن يمارسه إلى المعرفة العليا ، والهدوء الروحى ، والخلاص من حلقة التناسخ لبلوغ الفناء النهائى ، أى « النرفانا » .

وكان من عناصر نجاح الرسالة البوذية أن صاحبها لم يلجأ فى أحاديثه إلى بلاغة السنسكريتية ، لغة الهندوس المقدسة ، بل تحدث إلى الناس بلغتهم الدارجة « اليالى » وهى إلى السنسكريتية أشبه بالعامية إلى العربية الفصحى .

واصل البوذا تعاليمه بين حوارييه وكل من آمن برسالته من الهندوس ، وبخاصة أهل الطبقات التالية لطبقة البراهمة . وكان يتنقل فى شمال الهند ، يناقش تلاميذه ويجيب عن تساؤلاتهم حتى قارب الثمانين من عمره .

وفى طريقه إلى بلدة كوشيناجارا ، استراح بين الهضاب وتأمل الطبيعة حوله ، وقال لصفيه أناندا «ما أبهج الهند ، وأغنى طبيعتها ، وما أحب حياة الناس وأصفاها» .

وعلى ضفاف نهير «هيرانيافاتى» تحت خميلة من أشجار «الصال» تمدد فوق إزاره البرتقالى وأسند رأسه إلى ذراعه ، ثم التفت إلى أناندا ، وكان يبكى فقال :

كفكف من عبراتك يا أناندا . ألم أخبرك بأن فى طبائع الأشياء أن نفارق أعز الناس علينا ، وأقربهم إلى قلوبنا ؟

«وأشار إلى جسده قائلاً : هذا المركب يجب أن يتحلل إلى عناصره ويتلاشى . لا يحولنّك شأن من الشئون عن مواصلة جهادك يا أناندا . وسوف تخلص من سوأة الشهوة الملحة ، وسوأة الكينونة الفردية ، وسوأة الخزعبلات والجهالة . رب قائل فى نفسه يا أناندا ، بعد فنائى : خَفَتَ نَبْسُ المعلّم فلا معلم لنا بعده . كلا ، فالمبادئ والتعاليم التى لقنتكم إياها ، هى أستاذكم بعدى .

«والآن وداعاً أيها الإخوان . كل شيء هالك ، مآله إلى الزوال . تلك طبيعة الأشياء واصلوا جهادكم تبلغوا سبيل الخلاص»

لم تكن البوذية فى أولها عقيدة فلسفية تبحث عن أصل الوجود ، ولم تكن لتستعين بقوى خارجية أو خوارق ، ولا هى تَعِدُ الإنسان بمعونة فى الضراء خلا المعونة التى يتلقاها من ذاته . فالبوذى يقف حيال برنامج غير معقد ، هو خلاصة صراع ذهنى بين الرجل ونفسه ، يجب أن يخرج منه ظافراً . . . . »

والحقائق السامية التى نطق بها فى «روضة الغزلان» بصرنات ، قامت على حياة البوذا نفسه . فقد اطلع على شقاء الناس ، فرائس الأمراض والشيخوخة والموت ، وشعر بآلام فراق الأحبّاء وفوات ما تتوق إليه النفس ، ولم ينكس رأسه يأساً ، وإنما راح يجاهد منتزعاً نفسه من كل صلة فردية تلمساً لسبيل الخلاص من حلقة التناسخ ، تلك الحلقة التى أطبقت على عقول فلاسفة الهند دهوراً . غير معتمد على أحد سوى نفسه .

«فليبحث سيد هارتا جوتاما شاكياموني وسيلة العبور إلى الشاطئ الآخر حيث يستكن القلق ، وينفصل الأزلى عن الزائل ، وليعلم البشرية كيف تعبر بحر الحياة اللّجيّ ، وبيده نبراس يهدى العالم المغمور فى دياجير الجهالة والشقاء» . (راجع كتاب «سندباد عصرى») .

«كان البوذا رجلاً لا إلهاً ، معلماً لامخلّصاً . والإنسان مركب عضوى ، يجب أن يحقق توازنه الداخلى فهو حبّة تموت حبّة ، أو تخرج نبتاً ، وكيلة الحنطة لها طريقان : أن تطحن دقيقاً وتعجن وتخبز ، أو تبذر فى الأرض لتنبت غلالاً» [راداكريشنان] .

واجتمعت من تعاليم البوذا نصوص كثيرة باللغة (اليالية) ، ولا تعرف لهذه النصوص سوى مجموعة واحدة كاملة ، وهى المعتمدة إلى اليوم فى سيلان وبورما وتايلاند ولاوس وكمبوديا . والمقول إنها كتبت بعد انقضاء ستمائة عام على «البارانرقانا» «=فناء البوذا» .

وعرفت نصوص أخرى غير كاملة ، حفظتها مدارس البوذية فى شمالى الهند باللغة السنسكريتية وفى ترجمات لها فى الصين والتبت . وهى لا تطابق النصوص الأصلية . وكان هذا منشأ مذاهب البوذية المتعددة .

والبوذية ألفت مجتمعاً سوياً ، يرفض الطبقية ، ويشجب المغالاة فى التقشف ويؤكد المبادئ الأخلاقية ، فلا كذب ولا خمر ، ولا الاستيلاء على شىء بغير حق ، ولا زنا ، ولا إرهاق روح إنسان أو حيوان ، كما يؤكد الفضائل الاجتماعية فى العلاقات بين الوالدين والأولاد . وكان مجمع الرهبان البوذيين «السانجا» فى أول أمره يعيش على حسنة الناس تعطى للرهبان فرادى . وبعد ما عظم شأن «السانجا» تحولت الحسنة إلى هبات عينية ونقدية وقفاً من الحكام والأثرياء . ولم يكن البوذا يشجع رهبنة النساء ثم أبيح لهن ذلك فيما بعد .

ونشبت الخلافات فى مجامع الرهبان فانتهت إلى انقسام البوذيين شطرين أحدهما يمثل المدرسة المحافظة فيما يعرف بشريعة الشيوخ «التيرافادا» والثانى فسر البوذية وممارستها فى انطلاق وحرية .

تطورت هذه المدرسة المتحررة وذهبت كل مذهب فى تفسير أحاديث البوذا ، على

أساس النصوص السنسكريتية ، وعرفت بمذهب « الماهايانا » (= المركب الكبير) ، وإقلالاً من شأن المذهب المحافظ « التيرافادا » أطلق عليه وصف « الهنايانا » (= المركب الصغير) .

مذهب التيرافادا يقوم على دراسة نفسية لبلوغ أهداف خلقية . أما الماهايانا فقد هامت فى بادية الغيبيات وبذلك مهدت للهندوسية وبراهمتها أن ينفذوا إلى داخلها ويؤثروا فيها حتى هضموها ، كما يهضم البُواَ فريسته على مهل .

التيرافادا تبجّل البوذا كشخصية تاريخية ، إنساناً يضع بنى جنسه أمام مسئوليتهم دون اعتماد على غيبيات أو خوارق : العلمانى منهم حتى مدى قدرته . والراهب حتى يبلغ درجة القداسة «**آراهات**» .

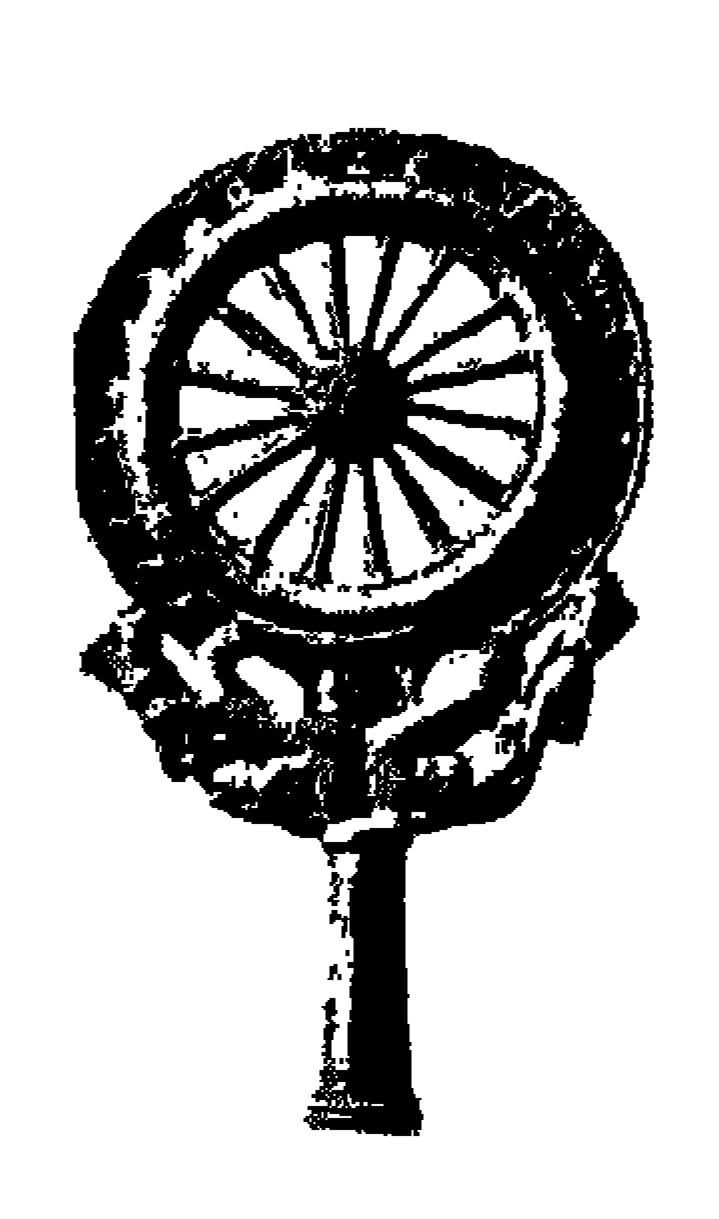
والماهايانا تؤله البوذا ، وتعتبره واحداً من « بددة » كثيرين ظهروا فى عوالم سالفة ، وكلهم يرتقون من رتبة « **البوديساتفا** » إلى رتبة «**البوذا**» ويعملون على معونة البشر ، وتداخلت فى هذا المذهب : المعجزات والأساطير والبدع .

وبعد الفتوحات الإسلامية لشمال الهند (١١٩٣م) انجلت البوذية عن معاقلها التى دمرت.أما فى الأصقاع الأخرى فقد عاشت تعانى التفسخ الداخلى . حتى انتهت إلى الانضواء تحت جناح الهندوسية والتلاشى فيها عندما استحوذت هذه على الرب « بوذا » واعتبرته **تناسخاً** (=**أفاتارا**) **من الرب فشنو.**

ولاحظ الحجاج الصينيون خلال القرن السابع عشر تدهور البيع البوذية فى الهند ، وقيام المعابد الهندوسية إلى جوار معابد بوذية مهجورة .

ويضاف إلى كل هذا منذ القرن السابع الميلادى تأثر البوذية –كالهندوسية– بنصوص **التانترا** » وهى مجموعة من التعاويذ والتعزيمات والشبشبة والطلاسم المعروفة «**بالمندالا**» (= المندل) . وكان قوام هذه الطقوس السحرية ، القوة الفعالة الناشئة من اجتماع الذكر والأنثى . ففى الهندوسية كانت عبادة « الشاكتى » (= عنصر الأنثى) واجتماع الأرباب بالربات . وفى البوذية فكرة اجتماع « **البددة** » و«**البوديساتفا**» **بإناث من جنسهم** «**وانحدرت الديانتان فى ممارسة الدهماء إلى طقوس منحطة تتخذ أوضاع اللقاءات الجنسية . وكان فى ذلك القضاء المبرم على ما تبقى من البوذية .**

وإنه لدرس كئيب ذلك التحول من عقيدة ساميّة ، لم يتحمل الشعب مسئولية الإنسان الشخصية فيها ، فأبى إلا أن يجعل من إنسان تاريخى عظيم ، ربّا ضمن أرباب يعبد صنماً . وكان البوذيون فى أوائل أمرهم يرفضون تمثيل شخص البوذا فى معابدهم وبيعهم ، مكتفين بأن يرمزوا إليه بشجرة البودى التى استنار فى حماها ، أو بجَفْنة طعامه ، وعلى أقصى تقدير ، بموطئ قدمه محفوراً فى الصخر .



من (كاما صوترا) إلى الشيخ النفزاوى

«عش طروباً مع ذوات العيون السوداء»
«عش طروباً فليس العالم سوى هراء وهواء»
«فالمجدود من جاد وتمتع» .

أبو عبد الله جعفرى رودكى

«ماذا كان يعنى أولئك الذى غيبهم الثرى» ،
«من رسمت أصابعهم وسط هذا السبسب البلقع»
«تلك الأجساد الملتوية العربيدة فى غمرة العشق والشهوة ؟»

لورانس هوب

موضوع دقيق مافتئ جيلى يعتبره حرجاً محرجاً . أما بنات اليوم وأبناؤه فيجعلونه موضوع الساعة ، والحق معهم ، فلو توقف لكان نذيراً بقيام الساعة .

لا حياء فى الدين ، كما لا حياء فى العلم . ولقد سمعت عندنا مخرجاً سينمائياً ممتازاً يقول : لا حياء فى السينما ، ولا حياة للسينما بغير الجنس ،أى والله !

ولا يبقى لى سوى كلمة توقفت فى حلقى لحظةً وهى : لا حياء فى الجنس،أضعها شعاراً للعصر العجاب الذى يعيشه الشباب ونعيش فيه نحن الشيوخ الفانين . ألم تسمع بأمر المعرض الذى أقيم فى كوبنهاجن منذ عامين أو ثلاثة بعد إلغاء قانون الرقابة على الأعمال الفنية إلغاء شاملاً ، فى الدانمارك ؟ لم أره ، وإنما قرأت عنه ، وعرفت غير القليل من موضوع معروضاته ، وسمعت بأمر قسمه الموصوف بالعرض الحى !

ويضيف إلى ترددى أن قد يعتبر القارئ موضوعى إساءة إلى بلاد الهند الصديقة ، وأغلبه قائم على كتب علمائهم وفلاسفتهم . وأحب أن ألخص بعض ما جاء بكتاب الأستاذ بيشام : «العجب العجاب الذى كان الهند» ومؤلفه من أوفى العلماء لحضارة الهند القديمة :

«كان زواج الشاب لازمة حياته ، بعد العشرين وللزواج عند الهنود قديماً أهداف ثلاثة : قيام الزوج بأداء طقوس العبادة ، وإنجاب الخلف ، ثم «راتى» وتعنى المتاع الجنسى .

« ومع أن هذا الهدف الثالث من الزواج هو الأقل أهمية حسب القواعد الأخلاقية الصارمة التى وضعها علماء البراهمة ، فإن هؤلاء لم يشجبوا النهاية المحتدمة للحب . فهى ممارسة إنسانية مشروعة ، يجب تنظيمها والتشجيع عليها .

وكلمة «كاما» تعنى الرغبة والتوق إلى شيء وتحقيقه ، وتنصرف إلى معنى العشق ، فالمتاع الجنسى عندهم على رأس وسائل الإمتاع المشروعة .

وكلمة «صوترا» تعنى عجالة ، وربما أكثر ، فهى الكتاب المدرسى أيضاً» .

وفى هذا إيضاح كاف لما جاء بعنوان هذا الفصل .

ومشكلتى اليوم مع حضارة الهند القديمة لا علاقة لها بكل هذا الحرج . فلا ضير من أن نلتى فى آثارها ، كما نرى فى آثار حضارات أخرى ، صوراً ومحفورات وتماثيل جنسية . وفى حضارتنا المصرية القديمة ، نعرف إله كورة إخميم المدعو «مين» كما نرى ربّ أرباب طيبة ممثلاً على أعمدة الكرنك وحيطانه بصفته «أمون الاتيفالى» . وفى حضارات الشرق الأدنى آثار لعبادة عشتروت . وتماثيل أرباب اليونان ، ومن بينهم «برياب» ، وقصة ضبط الرب هفستوس زوجته أفروديت فى أحضان رب الحرب آريس . وما فى آثار بومبى ، مما يحتجز وراء أستار بمتحف نابولى ، من فريسكات وتماثيل جنسية . وفى النثر العربى والشعر مخبآت مما يصفه معاصرونا بالأدب المكشوف ، وتتستر عليه المكتبات العامة فيما يعرف عند المكتبيين الفرنسيين بركن «الجحيم» ، ولا جحيم هناك ولا دياولو ، فالإنسان فى قديمه وحديثه يعنى بالموضوع عنايته بغذائه ودائه وأدوائه .

إنما مشكلى هو قرية ضائعة فى صقع «بندلكاند» من إقليم «**ماديابراديش**» تقع فى طريق الطائرات من دلهى **إلى الله أباد وبنارس**، اسمها «**كاجوراهو**» ، قرأت عنها ، وتدارست معابدها فى الصور لا احتشاماً ولا حياءً مصطنعاً . وإنما حال بينى وبين الزيارة

وهى فى طريقى ذهاباً وجيئة من دلهى إلى بنارس ، تكالب السواح على «مغانيها» يمققون عيونهم ثم يبحلقون فى منحوتات معابدها ، ويعودون إليها بالنظارات المقربة «ليفحصوا مناظرها .

لم آسف من الناحية «الترفيهية» على الحرمان من رؤية ما فوق أفاريز ، وجدران وأعمدة المعبد العشرين بكاجوراهو ، وإنما آسف لفوات الفرصة النادرة التى أشهد فيها أسلوباً فى العمارة تتميز به عن معابد الهند الأخرى فى غير قليل .

واعجب أن أدخل دكان وراق فى نيودلهى أطلب كتاباً عن كاجوراهو ، فيعاملنى كالمراهق أو الشايب وعايب ، الباحث عن كتب الشيخ النفزاوى ومولانا جلال الدين السيوطى ، وابن كمال باشا . ثم يستخرج لى من مكمن صوراً بالألوان المشفة للفانوس السحرى ، مما تضعه الشرطة فى قائمة الصور الفاضحة .

واقتنيت من بومباى كتاباً جاداً عن الحياة الاجتماعية فى كاجوراهو أيام عزها تحت حكم أسرة «التشاندالا» (بين القرن التاسع والثانى عشر الميلادى) يستعرض مؤلفه بطريقة علمية ما يقدم من تفسيرات لمنحوتات المعابد . وإذ كنت أقلب فى صفحات الكتاب ، لاحظت أن بعض شباب الهنود يتطلعون من فوق أكتافى لمشاهدة صوره .

الأمر إذن يتعلق بدور عبادة ذات قيمة فنية معمارية ، تتصل مباشرة بدراسة اجتماعية عن اتجاه خاص فى تطور – أو تدهور – الطقوس الهندوسية .

والسؤال الذى شغلنى مدى أسبوعين أو ثلاثة هو : ما تفسير وجود المنحوتات والتماثيل التى تصور مناظر «الحب» لا فى معابد كاجوراهو وحدها ، بل فى معابد أوربا أيضاً وغيرها . ولا فى معابد الهندوس من العصر الوسيط وحدها ، بل فى آثار البوذّية ذاتها ، معابدها وبيعها وخاصة فى نيبال والتيت . إنما تميزت كاجوراهو بثرائها فى الإفصاح والعرض ، وازدحام جدرانها وأفاريزها بمحفورات الهائثين فى نعيم .

أقول الهائثين ، لأن تعبير الوجوه فى تلك التصاوير شيء رائع حقًّا فى صدقه ، واشتعاله ، «وحموه» حتى ليقولن القائل : «أقل من هذا ونفق الحمار» .

ولن أسوق للقارئ كافة التعليلات التى يقدمها العلم لظاهرة الفن الصادق الصراح ، والتمثيل الواقعى الدقيق للقاء العشاق على جدران المعابد . فبعض التعليلات واضح

السّخف ، والنّفاق ، كأن يعتبرونها صوراً تسجيلية تعليمية لخاصة علماء البيداجوجيا ! !
أو أن يزعم الزاعم بأن البراهمة لجأوا فى القرون الوسطى الهندية إلى اجتذاب العباد ، مثلما يفعل بعض قسس البروتستانت فى عصرنا ، من تقديم موسيقى الجاز على باب الكنيسة حضًّا للشباب على . . . ممارسة الشعائر ، والتمسك بأهداب الدين .

ومن قائل – مما هو معروف وثابت فعلاً فى معابد التبت – من أن الصور والمحفورات فى بيوت العبادة إنما وضعت «**كورقة أسئلة**» فى اختبار عسير للفتيان المتقدمين لرهبنة « اللاما » حتى يستوثق شيوخهم من انصرافهم عن العالم ، وتهجدّهم وقنوتهم ، عندما يقفون أمام حقائق الحياة فى صميمها الخلاق ، دون أن يرفّ لهم جفن .

ومن قائل بأنها رسومات تدخل فى باب «**الإعلام**» عن مزايا وقدرات «**الديفاداسي**» وهى راقصات المعابد ، بنات كّرسن للخدمة الدينية ، يقمن بأداء شعائر الرقص ترفيهاً عن الصنم . فالأصنام يقوم على خدمتها الحمامى والشماشرجى ، والساقى ، والنادل يقدم لها أطايب الآكال ، وتشنف أسماعها بالغناء والمثانى والمثالث ، قبل أن تتقدم إليها « المحظيات » الراقصات . اللائى ينشأن تنشئة فنية أدبية قويمة ، تذكرنا بقيان العصر العباسى .

معابد كاجوراهو أثر من آثار مذهب متدهور من الهندوسية – له ما يماثله فى البوذية – جر عليه الزمن ثوب العفاء ، إلا من مناطق بعيدة عن العمران . ومن مفاخر الهند الحديثة بعد حركات الإصلاح التى بدأت فى القرن التاسع عشر ، أنها وضعت حدًّا لتلك المراسم العتيقة .

يعرف هذا المذهب باسم كتبه وهى «**التانترا**» وأصل العبادة « التانترية » هو عبادة « شاكتى » أنثى الأرباب ، وهن فى بانتيون الهندوس العنصر الإيجابى الناشط ، ومركز القوة الفعلية للأرباب ، يتقرب إليهن العباد ، توسلاً إلى بعولتهن . والقوة الأنثوية فيما يختص بزوجة رب الخلق والفناء : شيفا ، تتمثل فى « مونا » أو « بارفاتى » عن الخلق وفى «**دورجا**» أو الربة السوداء «**كالى**» عن التدمير والفناء .

«**والتانترا**» كتب تشتمل على تعاليم السحر ، وتهدف إلى تهيئة قدرات خارقة يسيطر بها الساحر على قوى الطبيعة ، وعلى الأرباب ذاتهم . ويبلغها بعض الرهبان البوذيين

نتيجة تدريبهم على التركيز الفكرى العميق وهؤلاء الرهبان السحرة لا يعيشون فى البيع تحت نظام مرسوم. ويتوسلون بما جاء من وصفات وطلاسم فى كتب «التانترا»، فيتلفظون بتعريفات منغمة «يانترا» تبلغهم ما هم بسبيله من السيطرة الروحية على أنفسهم وعلى الخلائق والأرباب.

والهندوسية التانترية تكشف عن ممارسات لعبادة الأنثى. وبعض أتباعها المعروفين «بالشاكتا» يغرقون فى هذه الممارسات إلى درجة التحلل من المحظورات البراهمانية فيجتمعون ليلاً فى منزل خاص، وربما فى معبد مهجور، والأفضل أن يتم اجتماعهم فى أرض المحرقة بين بقايا العظام المحروقة. يتحلقون فى دائرة واسعة خططت بالطلاسم والرموز «يانترا ومندالا». وبعد أداء صلاة الليل وتهدئة أشياح الموتى، تبدأ الجماعة فى كسر المحظورات الخمس أى «البانتشامكارا». وتبدأ كلها بحرف الميم: **ماديا** (= الخمر) **ماممسا** (اللحم) **ماتسيا** (السمك) **مودرا** (الحبوب المحمصة) وأخيراً، وليس آخراً: **مايتونا** (الاتصال).

وقد يجيء الرجال «الشاكتا» إلى دائرة «البانتراوالمندالا» مع زوجاتهم، وفى هذا إقامة حد من الشرعية فى الممارسة الجنسية، وقد يختلط الحابل بالنابل.

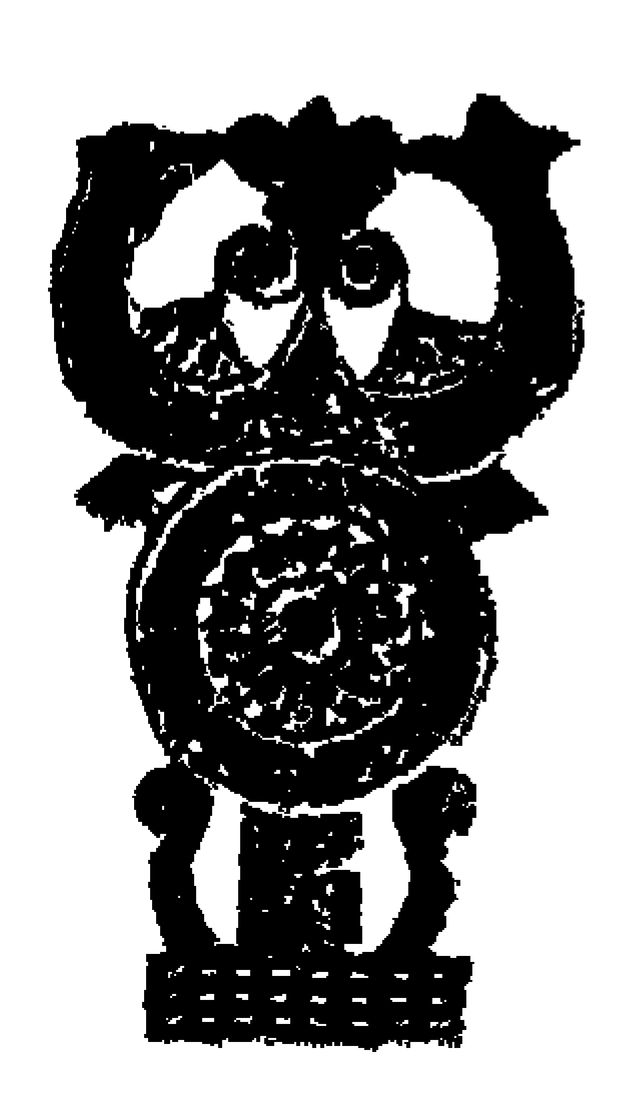
ويبدأ الاتصال الإجماعى بعد تناول الطعام المحرم، وتعاطى خمس كؤوس من الخمر.

وفى مذهب معتدل تكسر المحظورات الخمس بشكل رمزى بحت.

هذا عندى، على طول ما قرأت وضاهيت بين تعلات العلماء، هو التفسير الوحيد لما لا أتردد فى نعته بالفاضح، من محفورات معابد كاجوراهو وغيرها فى أوريسا والبنغال. **ودليلى إلى أن الوصف الفاضح لا يتعدى الواقع مهما قدّم من تفسيرات هو أن الكتاب الجاد المؤلف عن كاجوراهو والذى أشرت إليه، كان رسالة دكتوراه بجامعة لكناو، لم يضمنها المؤلف شيئاً عن المنحوتات «الأروطيكية»** (**نسبة إلى إروس اليونان، وهوكيوبد الرومان**) **وصفها، ورسمها، وتقسيمها وتفسيرها. وإنما أضاف كل هذا إلى رسالة الدكتوراه بعد مناقشتها، عندما تهيأ لطبعها فى كتاب يتناول تاريخ كاجوراهو، وعبادتها ومعابدها، وتصوير الحياة الاجتماعية فى عصر أسرة «التشاندالا».**

لم يكن لى مناص من النفاذ إلى صميم العقائد الهندوسية والبوذية بل والجائينية التى أصيبت بما تبتلى به العقائد الأخرى عندما تحولها جهالة الشعوب من المطلق الذى لا حدود له ، إلى رموز وأصنام وبدع وخزعبلات . وتضفى القداسة على تركيبات للأضرحة وأشجار وبوابات مدينة يعلق عليها العوام نماذج من أوجاعهم : خرقة أو خصلة شعر أو ضرساً .

ولقد شهدت فى صغرى بقرية قريبة من القاهرة منظراً لا أنساه : رجل فحل كان يعرف باسم « الشيخة خضرة » ، تجتمع النسوة حوله فى حاصل ، أو مندرة مظلمة ، يرقصن على إيقاع الدفوف تدق الزار الجهنمى ، وفى ذروة الانفعال تعبط الواحدة منهن « الشيخة خضرة » وهى تصرخ ولا تترك الدجال الفحل حتى يخرج الجن الأحمر من جسدها الملبوس .



فى كهوف إيللورا ومعبد كايلاشا

(لو أن القصائد تنحت صخراً لكانت الكايلاشا)
« رامش شنكار جوبتا »

« فى إيللورا نحت إيمان البراهمة من الجبل معابد تبدو
وكأنها من عمل الأرباب » **يزدانى**

لم أر من الهند فى رحلة الصبا والشيخوخة إلا قليلاً. فلم أدخلها فى المرتين سائحاً وإنما عابر سبيل. وكانت الصدفة حليفى فى أن أرى نماذج عظيمة من آثارها فى الجنوب والوسط والشمال. ودعّمت الرؤية بزيارة متحفين من أهم متاحف الهند: متحف مدراس فى الرحلة الأولى، ومتحف نيودلهى فى الرحلة الثانية، ومتحفين صغيرين فى بنارس وصرنات. وكونت فكرة لا بأس بها عن الفن المغولى الإسلامى فى **نيودلهى واجرا وأورنجباد**. وعن الفن الدرافيدى فى معبد **مادوراى** العظيم، **وراميشفارام** الماثل. وعن فن العصر الوسيط فى هضبة الدكن: **كهوف أجانتا وإيللورا**. وفى بومباى: **معبد جزيرة اليفانتا**.

أجّج هذا القليل شوقى إلى معرفة الكثير. وبما إن أمر رحلة طويلة من شئون القدر وحده، فقد انصرفت عقب رحلتى الثانية، ولبضعة أشهر إلى مطالعة كل ما أتيح لى من كتب عن الفن والأدب والعقائد والفلسفة الهندية. فالحضارات الدارسة لا يكفى فيها ارتياد آثارها المنظورة وحدها، بل يدعمها الاطلاع الواعى والقراءة المستنيرة.

وحضارة الهند تقف فى تاريخ آسيا موقف الحضارة الكلاسيكية فى أوربا. ونحن بطبيعة موقعنا الجغرافى أعرف بحضارات اليونان والرومان، وما خرج عنها فى أوربا المسيحية، ونحن أدرى بحضارة الإسلام، ومصر واسطة العقد فيها، وأقدر على فهم المسيحية بحكم كرازة مارمرقس العريقة، ورهبنة أنبابولا وأنباانطونيوس وأنبا شنودة.

أما حضارة الهند فهى شديدة الاستغلاق علينا لصعوبة نفاذنا إلى عقائدها الألفية وما برحت حية، ولأن فنونها، فما عدا الإسلامية منها، شىء جديد علينا، غريب لعيوننا، عسير الاتصال بأعماق نفوسنا وأحاسيسنا.

أمامى كتاب سياحة الأمير يوسف كمال «فى بلاد الهند الإنكليزية وكشمير والتيبت» جزءان (١٩١٥ – ١٩٢٠)، وإليك ما يذكره عن كهوف إيللورا، وهى من أعظم المنجزات الفنية فى تاريخ الهند:

«ركبنا صباحاً عربات وتوجهنا إلى الكهوف، وهى مغارات قديمة منحوتة فى الصخر. ولها أعمدة منقوشة نقشاً جميلاً، والبعض منها بودية والبعض هندية جائينية، وعددها ٣٢ كهفاً (الصحيح هو ٣٤). أشهرها ثلاثة خصوصاً كهفى النجار وكلياسا (كايلاشا).... ويقال إنها مساكن (يعنى بيعاً لسكنى النساك: فيهارا) وبعضها معابد (يعنى تشيتيا). وداخل الكهوف توجد نقوش بارزة أيضاً تشخص معبودات أهل الهند......».

أقل من صفحة فى مجلدين عدد صفحاتهما ٤٠٠ أو أكثر. كان يوسف كمال رجلاً مثقفاً، محباً للفنون. أنشأ أول مدرسة للفنون الجميلة بدرب الجماميز، مدرسة الطلائع العظمى فى تاريخ الفن الحديث بمصر. ولا نتطلب منه أن يكون كاتباً نحريرا. وما أبحث عنه عبثاً فى مجلديه هو: محاولة النفاذ إلى فن الهند القديمة. وعذره أمام هذا الفن، بوذيا أو هندوسيا أوجائينيا، أنه فن غريب علينا.

ولكن ما عذرى أنا، بعده بعشرين عاماً فى كتاب «سندباد عصرى»؟ فلنأخذ بعض قولى عن «ماهابالى بورام»، أروع أعمال النحت الهندى: **«جهد الفنان المجهول أن ينحت على صفحة صخرة سمراء فى وادى ماهابالى بورام، ما أوحت إليه أسطورة نهر الجنج – جنجا ابنة الشمس وهيمالايا – وجريانه من السماء إلى الأرض حتى مياه بحر البنغال. وجاء القاصى والدانى يشاهدون فى خشوع ذلك النهر الرائع ويغتسلون فى مياهه المقدسة.**

«وليس لعبقرية أقل بذخاً من عبقرية ميكل أنجلو أن تستطيع ذلك. وصخرة ماهابالى يورام قد حملتنى على التفكير بأكبر فنانى الرينسانس، ولعله أعظم من أنجبت

أوربا من رجال الفن . والفنان المجهول الذى نحت صخرة ماهابالى يورام ربما كان أكبر من ظهر فى آسيا من رجال الفن ، فقد حول الصخرة الصماء غير المستوية إلى سمفونية مرئية،إلى عالم مزدحم بتماثيل آلهة وآدميين وحيوانات تتجه جميعها إلى شق فى منتصف الصخرة مثل فيه الفنان : جنجا فى صورة حيات (ناجا) ذات رءوس ، وصدور آدمية .

«أنظر إلى هذه الفيلة تيمم شطر النبع الآلهى ، حولها صغارها . وإلى السباع والغزلان والقردة تجرى لتشاهد جنجا تغْدق نعماءها على الأرض . انظر إلى صاحبى داديكارنا الهر المتقشف ، وقد انتصب قائماً على قدمه الخلفية ورفع الأخرى . وطرفيه الأماميين إلى أعلى فى حركة نُسَّاك الهنود ، وإلى الأله شيفا ، والألهة دورجا ، وإلى النساك وقد بدت ضلوعهم تقشفاً ، وانحنت رءوسهم خشوعاً . . . . إلخ . («سندباد عصرى» ١٩٣٨) .

ومع هذا فإن عزوفى عن الهندوسية كما يمارسها العوام لم تذر لإحساسى الفنى انطلاقاً ، حين تصورت النحّات الإغريقى يعمل بإزميله فى هذه الصخرة تحت شمس يونان ، فأضفت :

«أتيكا ! ليس غيرك مستطيعاً تهدئة الطباع وإسلاسها . ومهما ارتفع الفنان الهندوسى بخياله وإحساسه وفنه فهو عاجز إلا عن إثارة القلق فى نفوسنا ، وهو مطبق على أنفاسنا ، مشوّش مشاعرنا بذلك «الفريسك» الصخرى ، يئن لهفةً وخشوعًا لتلك الآلهة القاسية نزلت على البشرية نقمةً ، وأحاطتها بحلقة التناسخ . . . إلخ» (المرجع ذاته) .

أما فى رحلتى الأخيرة فلم تقم فى نفسى مواجهات لا محل لها بعد كل هذه السنين التى تفتحت فيها روحى لفنون السود الأفريقيين ، ثم للفن الحديث الثائر على قيود الماضى كلها .

كانت متعتى بالنحت البوذى والهندوسى فى إيللورا و إليفانتا ، والتصوير البوذى فى أجانتا ، متعة كاملة لم تفسدها مقارنات عقيمة .

وصلت إلى أورنجباد فى العصر ، ورتبت رحلتى إلى إيللورا لليوم التالى «بالتاكسى» ودليل خاص . وقضيت اليوم بطوله فى زيارة أهم كهوفها ، حسب قائمة أعددتها فى الليل .

حينما رأيت منظر الربوة من البعد ، وفتحات الكهوف وأعمدة المداخل ، تذكرت كهوف . . . . بني حسن ! ! وعندما زرت ذروة النحت فى معبد **كايلاشا** ، **ذكرت معبدى . . . . أبو سمبل . ومهما مجدنا العمل الدولى المشكور ، الذى أنقذ أبو سمبل ، فإن ذلك لا ينسينا المنظر فى الموقع القديم ، حيث تنعكس الصورة فى** مرآة النهر الجبار ، حينما نقوم فى الفجر لنطالع صحوة تماثيل رمسيس العملاقة تطل عليها القردة من عل . وكأن شمس الشروق محلول الإظهار فى غرفة التحميض .

فلنتواضع ونحن نتنقل بين كهوف إيللورا ، وقد حفرت فى منحدر ربوة تواجه مغرب الشمس . أغلبها من القرن السابع الميلادى . اثنا عشر بوذيه وسبعة عشر هندوسية ، وخمسة جائينية .

لم أزرها كلها ، وليس فى نيتى وصفها ، لا جملةً ولا تفصيلاً . يكفينى أن أسجل إحساسى القديم بالهدوء والدماثة فى الفن البوذى حيث تسيطر على روح الفنان بساطة البوذا وبراءته ، متربعاً وقد تماسكت يداه فيما يمثل «تحريك دولاب الشريعة» (دارماتشاكرا – مودرا) . وسواء مثل واقفاً أو متربعاً أو مستسلماً لضجعته الأخيرة ، فإن طلعة جوتاما سيدهارتا شاكيامونى «الصاحى» تحت شجرة البودى ، توحى بصفاء عجيب ، وتنزل على النفس هدوءًا وسلاماً .

فإذا انتقلنا إلى كهوف الهندوسية ، أحاطتك الأرباب وأساطيرها بجو من العنف والحركة الدائمة تدور لها الرأس . فهذه **كالى – دورجا** ، الربة العطشى للدماء ، تمسك بقحف جمجمة ، فاغرة فاها يقطر دما ، منكوشة اللمة . «أمنا الغولة» حقًّا ! فى يدها الأخرى سكين ، وتحت أقدامها جنّ من العصاة .

وشيفا الخلاّق الحامى المدمّر ، نراه ممثلا فى أحواله الثلاثة . المدمّر عملاق غضوب يرقص رقصة «**التنداڤا**» ، يتحلى بعقد من الجماجم ، ويتمنطق بصلّ (كوبرا) ، وتنشق شفتاه عن أنياب تمسك بفريسته الشيطان **راڤنا شورا** .

وشيفا «**نتاراجا**» يرقص رقصة الخلق والإبداع فى حركة التواء رشيقة (حركة تقليدية فى فن النحت الهندى) وكأن أذرعته الكثيرة أجنحة ترفعه عن الأرض . ساقاه تضربان فى الهواء ضربات سباح عظيم . مدندش بالحلى ، متوج بالبذخ .

وحوله الموسيقيون يعزفون فى حماس ، وكأنهم اندمجوا فى الرقص التحاماً . . . والجميلة بارفاتى ترمق ربها وبعلها فى إعجاب ، وثدياها أشبه بدانة المدافع القديمة ، وهو التقليد الفنى فى تمثيل الأنثى عند قدماء الهنود .

تخوننى الذاكرة فأعود إلى الكتب ، فإذا الصور تحيا بقوة ذاكرة غفت ولم تنس .

كل ذلك تراه على أشكال وأنواع من الأرباب والإناس والجن والحيوان والنبات محفورة على جدران الكهوف ، وفوق الأعمدة وفى الأسقف ، إلا إذا كانت تقلد المبانى الخشبية ، فلا تكاد تصدق أنها صناعة النحات لا النجار . وقد ناقشت الدليل فى عناد ، وأنا مُصِرّ على أن ما بالسقف الحجرى أثر من عارضات وألواح خشبية تركت أثرها فى الصخر . . .

أما إذا بلغنا «كايلاشا» – أبو سمبل الموقع – أذهلتنا ملحمة منحوتة فى صخر صلب . تصور أن يخرج من الجبل الصخرى معبد كامل ، قال عنه الكولونيل سيلى عام اكتشافه (١٨١٩) : **«الكايلاشا معبد مذهل ، حفر داخل الصخر إلى عمق ٢٥٠ ياردة وعرض ١٢٠ وارتفاع ١٠٠ . نحتت أبوابه ونوافذه وسلالمه الصاعدة إلى الأدوار العليا بحجراتها الفسيحة ، وعمدانها ، وغطيت جدرانها بنحت بارز لأساطير الهندوسية .»**

وقال عنه فى زماننا روجرفراى : **«لا ريب فى أن النحات الهندى كان موهوباً إلى درجة عظيمة»** ونسى روجر فراى معبدى أبو سمبل وهو يقول : **«لا يوجد شعب آخر فكر ولو حالماً فى أن ينحت معابد بهذا العظم ، من الصخر الصلب . وما من شك فى أن العمارة الهندية لا تقوم على قواعد الإنشاء والبناء كما عندنا . إنما هى عملية فنية من قبيل . . . حفر الصور فى سن فيل .»**

ويقول مارتن هورليمان : **«ليست هذه مجرد كهوف محفورة ، ولكنها معابد وبيع كاملة بأبوابها وصحنها ، معابد قائمة بذاتها . بدأ العمل فى الربوة من أعلاها إلى أسفلها ، ثم فصلت القاعدة عن أعلى الصخرة (أى أزيل السقف) وهذا ما حدث فى الكايلاشا . لم تعد كهفاً ، بل قامت مستقلة مكشوفة للسماء ، لا معبداً صغيراً ، وإنما هى «بناء» يعدل كاتدرائية . . .»**

وكايلاشا اسم موضع من جبال الهمالايا حددته الأساطير مقاماً لشيفا الرب الأكبر للهندوسية بعد انزواء براهما . وإنك إذ تقبل على المعبد تحسبه أقيم كما تنشأ الأبنية حجراً فوق حجر . لو لم تعدّك كهوف إيللورا لإدراك مقدرة الإنسان لا يفجر من الجبل بوسيلة أو بأخرى أحجاراً ينحتها ويرصها بعضها إلى بعض أو فوق بعض . بل يعمل بيديه ، وما تحمل من أدوات نحت بدائية ، فينشئ البيع (فيهارا) والمصليات (تشيتيا) ، وينحت فى جدرانها تماثيل الأرباب والربات والمعارك ، والحب والزواج والميلاد ، وضروب الاتصال بين الجنسين فى صراحة عجيبة ، ذات مصطلحات أعجب : العناق المتسلق ، والقبلة الراعشة ، والزاحفة والضاغطة والخجول ، و « **الشوشانا** » ؟ !

رأيت وأنا أدور فى عرصات كايلاشا ثلاثة من العمال يسوون أرضية « **المندابا** » . وقفت أتأملهم ، وأستحضر فى ذهنى المئات والآلاف من أشباههم طول السنين والقرون ، الذين تعاقبوا على العمل كالنمل يحضر صفحة الربوة حتى يحقق بالحفر والنحت ما قد يكون أكبر وأعظم بناء منقور محفور من صخرة واحدة .

تصور الحجّارة (ناحتى الصخور) وقد بدأوا من أعلى الربوة يزيلون ثلاثة ملايين قدم مكعب تترك مكانها فضاء فسيحاً ، فيما عدا كتلة واحدة ، وبعض أخرى ، وسط هذا الفضاء ، أبقيتا لحفر « بناء المعبد الرئيسى وتابعه ، ونقشه ، وزخرفته بالنحت البارز المنخفض (الباريليف) والمرتفع (الهوريليف» وكأنَّ الصخرة قطعة من العاج . لا تجد جداراً واحداً ، ولا حائطاً من حيطان حجرات المعبد غفلاً من نحت لصور النبات والحيوان وأبناء الأرض وأرباب السموات . فهذا « **ناندى** » ثور شيفا ، وهذا هو الطائر الخرافى « **جارودا** » وتلك هى الصلال والبوم والأشجار بأغصانها وأوراقها وأطيارها .

لا أحسب ساعتين ولا ثلاث ساعات بكافية لزيارة الكايلاشا . ولو قدر لى أن أعود إلى « اللورا » لخططت زيارتى بنفسى دون دليل ، ولأقمت فى « الرست هاوس » بمنطقة الكهوف ، ولبدأت بكايلاشا ، أو ما توصف بالكهف رقم ١٦ ، ولم تعد كهفاً ، ولا أراد لها نحاتوها أن تكون كهفاً . بل معبداً للرب شيفا على الأرض ، يمثل مثواه فى أعلى الهمالايا .

نحت المعبد الأوسط نحتاً كاملاً ، وصوّر كأنه يقوم على قاعدة تحملها قطعان من

الفيلة والأسود . قاعدة لا تحمل شيئاً فهى والأرضية وجسم المعبد ، جدرانه وحجراته وسلمه قطعة واحدةً من الصخر قدّت من الجبل وبقيت متصلة به .

نصعد إلى داخل المعبد ، فندخل فى أبهاء محفورة الحيطان تصور أساطير شيفا ، وقصص فشنو الرب – الأسد ، يمزق جسد شيطان مريد ، لم يقدر عليه إنسان ولا حيوان ، وافترسه فشنو فى صورة إنسان وحيوان .

هنا أيضاً قصة العملاق «**رافانا**» ملك سيلان (لانكا) الأسطورى ، خاطف سيتا زوجة راما ، بطل ملحمة «**الرامايانا**» الذى انتصر فى النهاية على راڤانا وخلص منه سيتا ، وقتله بمساعدة جيش من القردة يقودها القرد الرب «**هانومان**» .

ورافانا يصور على جدران الكاياشلا فى واقعة رهيبة مع شيفا : دخل فى كهوف الهيمالايا ، وحاول زلزلة شيفا فى مقامه العالى . فاهتز الجبل وماد «بفعل فاعل» ، يتحدى سيد الأرباب .

لوحة عجيبة تشعرك بأن الجبل زلزل زلزالاً ، وشيفا الجالس فوقه لا يتزعزع ، وإلى جانبه بارفاتى تتعلق بدراع بعلها . . . فلا يصنع شيفا شيئاً أكثر من أن يدق بقدمه أرض الجبل ليثبت فى مكانه . فإذا بالعملاق رافانا وقد توقف وانحنى صاغراً ، كل مقاومته تتركز فى أن لا يبطّط ويسحق . .

حقاً ، لو أن القصائد تنحت حجراً لكانت الكايلاشا .



«فذلكة الفن الإسلامى فى الهند»

عندما ينتقل الرائى المصرى من الفن الهندوسى والبوذى والجائينى إلى **الفن الإسلامى فى الهند**، يعود به الإحساس على التو إلى روح القرابة، ووحدة الفكر بين مسلمى الهند، وبين أهل الممتد الإسلامى الشاسع عبر آسيا وأفريقيا، مهما اختلفت النشأة والبيئة، والجنس، حتى ولو اختلفت الزخارف والعقود وتيجان الأعمدة والقباب والأبواب.

وإضافة إلى هذا، فإننا فى منطقة الشرق الأدنى وفى المغرب الأدنى والأقصى، سكان بحر الروم القديم، اتصلنا منذ العهود السالفة بدول البر الشمالى لهذا البحر، واعتدنا على الأشكال الحضارية التى جاءتنا وتجيئنا من الشمال. وهذا الاعتياد، وما كان له من بعض التأثير فى فنوننا، جعلنا أسرع قبولا وفهماً لفنون أوربا، وخاصة فى العصور الحديثة.

أما الفن الهندى والفن البوذى وما إليهما فهما غريبان علينا، كما هما غريبان على الأوربى. وأمامى بعض الأثر من انطباعات الغربيين به، مما يقارب انطباعنا. فهذا كتاب من كتب الأدلاء السياحيين وضعه أمريكى لزوار الهند، ينقل عن العلاّمة هرمان جوتس قوله: «إذا كانت أوربا والهند تبدوان بالنظرة الأولى متباعدين بعداً شاسعاً، فإنهما على اتفاق فى المساحة، وفى التاريخ المثبوت الذى يمتد فيهما عبر خمسة آلاف سنة. وفن العمارة فيهما مر بأساليب متعاقبة منذ فجر التاريخ حتى عصر الفولاذ والأسمنت المسلح، تبعاً لحضارات متغيرة نمت وازدهرت من إقليم إلى إقليم. ولقد تلقت أوربا مؤثراتها من حضارة الإغريق القدامى، وانتقل تراثها إلى العالم الجديد. فى حين أن الهند تلقت مؤثراتها من غربى آسيا ووسطها، وانتقل تراثها إلى بعض أفريقيا والشرق الأقصى.». وفى الهند ينتقل فن العمارة خلال أدوار ستة منذ عصر ما قبل التاريخ:

الدور الأول نشأ فى وادى نهر السند وهارابا. والثانى هو عصر الفيدا الآرى، والثالث عصر البوذية، من حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى، والرابع عصر الحضارة الهندوسية، منذ القرن الخامس الميلادى، وهذا هو فنها الأصيل الذى ما برح يمارس فيها حتى العصر الحاضر. والخامس عصر الحضارة الإسلامية، من القرن الثانى عشر الميلادى بعمارتها المنمقة، وقبابها ومآذنها وعقودها وبواكيها. وأخيراً: العصر الحديث حيث النمط العالمى السائد.

ويقول وليم كيرتس: «إن الغربى عندما يغوص فى عالم الفن الهندى، يحس غالباً بشعور مبهم يجتمع فيه الاستغراب والقلق، وعقولنا تتطلب التكيف مع عالم جديد من الأشكال والأوضاع المليئة بالأسرار والإيحاءات.»

وقال ول ديورانت: «سمة الإقليمية تظهر فى إنسان يحكم على الدنيا فى حدود إقليمية، ويعتبر كافة ما لم يعتد عليه من قبيل الهمجية. ويقال بأن الإمبراطور المغولى جهاتكير – وكان ذواقة خبيراً بشئون الفن – لم يحتف بلوحة تصوير أوربى. واتضح انصرافه عنها لأنها مصنوعة بالزيت. ويروق لنا العلم بأنه حتى الأباطرة يمكن أن تضيق الإقليمية أفقهم، وإننا مثلهم نحس بالصعوبة فى تقييم منمنمات الهند. كما أحس جهانكير بخيال تصوير زيتى من أوربا.»

الفن الإسلامى والحضارة الإسلامية أشياء جديدة فى التاريخ الاجتماعى والحضارى والسياسى للهند. فقد أحتل المسلمون أهم أصقاع شبه القارة الهندية فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، وبلغوا أقصى الجنوب فى القرنين التاليين. واقتصر استعمارهم على عدد محدود من المدن الهامة والحصون (أوما يعرف بالثغور فى تاريخ الحضارة الإسلامية). وفيها أقاموا المساجد، والقصور والمدافن، مستخدمين أنقاض الآثار الهندية كمحاجر أو جيارات. وكانت قصور الحكام تبنى داخل الحصون، ثكناتها، ودواوينها، ومطابخها وحظائرها، ورحبة التشريفات السلطانية (المشور)، ومجلس السلطان، وبيوت الحريم، تحيطها البساتين والرياض. القصر يطل على المدينة من واجهاته العامة. أما واجهاته الخاصة فتطل على منظر طبيعى جميل: نهر أو ربوة أو جبل. والمدائن الإسلامية الأخرى تحتوى على الأسواق والحمامات.

ويمكن تقسيم الفن الإسلامى إلى النمط الأفغانى [الباتان] ، من القرن الثانى عشر حتى السابع عشر ، والنمط المغولى من السادس عشر حتى التاسع عشر. وكلا الفنين يرتدان إلى الفنين التركستانى والفارسى .

والمؤثر الأكبر على فن المغول هو الفن الفارسى فى الدولة الصفدية التيمورية ، بقبابه البصلية ، وجدرانه المكسوة بلبنات قاشان (القيشانى) . إنما تميز الفن المغولى باستخدام حجر المرمر ناصع البياض المرصع بالجواهر نصف الثمينة ، مع الانتفاع الأساسى بالحجر الرملى داكن الحمرة .

ولقد ساد الفن المغولى فى أنحاء الهند إبان القرن الثامن عشر ، إلى حد التأثير على نمط المعابد،بل لقد استألفه البريطانيون فى مبانيهم الرسمية بالحجر الرملى الأحمر ، مع أثر من الفن القوطى المتدهور ، ويعرف هذا الأسلوب بالطراز الفكتورى ، نسبة إلى فكتوريا ملكة بريطانيا ، وإمبراطورة الهند .

وإذا كان التصوير قد بلغ الذرى فى العصر البوذى (كهوف أجانتا) ، فإن المسلمين قد جاءوا بفن الفرس المنمنم (منياتور) ، فى رقة وجمال ألوان . وإذ كان سلاطين المغول يسمحون بنوع من الحكم الذاتى فى إماراتهم ، فقد تطور التصوير فى هذه الإمارات ، ذات الأغلبية الهندوسية ، بمزاوجة بين الفن الشعبى الهندى وبين المنمنم الفارسى .

وقد لا تكاد تفارق بين منمنمات المسلمين ومنمنمات الهندوس . لأن التربة الفنية القديمة فى شعب الهند ، وقد تأثرت بالفن الذى جلبه مسلمو آسيا الوسطى ، هى التى جعلت للمنمنمات فى الهند خصائص تميزها عن المنمنمات الفارسية . والفارق بين المسلمين والهندوسى فى هذه المنمنمات لا يتضح إلاّ فى موضوعاتها .

ارتفع شأن هذا التصوير فى عصر إمبراطورية المغول (القرون ١٦ إلى ١٨) ، وهذا فن ارستقراطى يستوحى حياة القصور ، فى احتفالاتها ، وتشريفاتها ، ونزهاتها ، ومآدبها ، ورياضتها ، وحياتها العاطفية . وكان تصوير الأشخاص مسيطراً بطبيعة الحال ، إلى جانب تصوير الطيور والزهور والرياض الغناء تمرح فيها الظباء . ويمكن القول بأن منمنمات الأرستقراطية الهندوسية تواصل اعتمادها على الفن الشعبى الهندى ولكن فى ضوء الفن المغولى الفارسى . ويتضح هذا الفن الهندو– إسلامى فى إمارات

الراجابوت (راجاستان) حيث تظهر فيه صور الأساطير والملاحم الهندوسية (الرامايانا والماهابهارتا)، وحياة كريشنا، رب الشباب والغزل، وحبه لقرينته رادها.

ماذا كان أثر الفن الإسلامى المغولى على كاتب هذه السطور؟ هأنذا أسجل انطباعاتى بعد مضى فترة طويلة على رحلتى الهندية الثانية، مستعيداً إياها بمراجعة صور ما رأيت. ومع أن إعجابى بتاج محل هو الأقوى أثراً، لأنه انفعال فنى مصفّى، لا تتداخل فيه عوامل خارجية، فإننى لا أنسى، على سبيل المثال، زيارتى لمسجد الجمعة الكبير بمدينة دلهى القديمة، وقد بلغته فى عصر يوم من شهر رمضان، وصعدت الدرج الفسيح الموصل إلى بابه الكبير، ثم دلفت إلى صحنه الهائل، فوقفت تعقد الدهشة لسانى فى مواجهة الإيوان المغطى، تعلوه القبة الكبرى تزاملها يمنةً ويسرةً قباب أصغر حجماً، ومنارتان فى كل طرف.

وجمال البوابة إلى الإيوان المغطى يفوق تناسقه بوابة فاتح بورسيكرى، إلا أنها ترتفع فى نظر الواقف بالصحن الكبير فتخفى أكثر من نصف القبة الوسطى.

أما بناء تاج محل فيتميز بالتناسب الرائع بين بابه الأوسط، وبين القبة الوسطى، فلا يغطيها، دون أن ينتقص هنا من تناسب أبعاده، مع التناسق الكامل بين المآذن الأربعة فى أركانه. ولا شك فى أن تاج محل جدير بإعجاب كل من يراه فى الواقع، أو حتى فى الصور.

وإعجابى بمبنى جامع دلهى يتداخل فيه تأثرى «بعبقرية رمضان»، وازدحام الصحن الفسيح بالصوام، كل جماعة فى ركن منه، تعد إفطارها، فوق فرش منقولة من منازلها، دون أن يؤثر زحامهم على الجو الفنى للمبنى العظيم. إلا أن انحصار مسجد دلهى وسط مبانى الحى الإسلامى يمنع من التمتع بمشاهدته كاملاً إلا أن يرتفع موضع النظر من حوله.

أما تاج محل فيزداد رقةً وإقناعاً بتفرده وتوحده بعيداً عن العمران، يعبر الإنسان إليه على ضفتين من المرمر لبحيرة ينعكس على سطحها خيال البناء الرائع، انعكاس صورة فى مرآة، وتحيط بالمدفن روضة هادئة يتجاوب تنسيقها ويتناغم مع البناء ذاته، وكأنه جوهرة ثمينة يبرزها صائغ فنان.

فى هذا الأثر الذى أقامه الإمبراطور شاه جيهان لزوجته المحبوبة ممتاز نجوم ، يرتفع فى الهند الإسلامية إلى ذرى قصر بنى الأحمر ، ومدافن المماليك . وينبغى أن لا ننسى بأنه أثر مباشر من الفن الفارسي ، شارك فى تصميمه ثلاثة معماريين : الفارسى أستاذ عيسى والإيطالى جيرونيمو فيرونيو ، والفرنسى أو ستان ده بوردو .

ومدفن السلطان همايون فى دلهى تحفة معمارية تمثل عندى الفن الهندو– إسلامى فى أكمله . السور حوله بأبوابه الكثيرة يعلوه طنف أو إفريز طويل ، مهما أخفى من الواجهة أمام الناظر من قرب ، فإن تناسق البناء يكتسب اتزاناً عجيباً فى تشابه أبواب السور بفتحات المبنى ، فى عقودها المكسورة . ولعل أثر كل هذه المبانى الجميلة تعززه خاصة من خصائص العمائر الهندو إسلامية فى العصر المغولى ، وفى شمالى الهند : وهو الحجر الرملى الوردى اللون ، بتعاشقه مع المرمر الناصع البياض ، أو الرخام خفيف الصفرة . هذا إلى أن صفائح المرمر مشغولة كأنها حلية من الذهب أو العاج ، التى تعرف عند الصياغ بشغل الشفتشى .

ولنذكر سيكاندرا ، مدفن السلطان أكبر فى مدينة أجرا ، بوابته تتوسط أطباق خمسة بنوافذها ، ويتحلى سطح البناء بأبراج أربعة تعلوها قباب صغيرة من المرمر . وتتناقص أبعاد الطوابق فى نظام مدرج .

ومن آثار المسلمين الأوائل ، قبل المغول ، مسجد « قوة الإسلام » أقامه قطب الدين إيبك عقب استيلائه على دلهى ، عاصمة الراجبوت ، عام ١١٩٣ م . استخدم فيه أساطين معبد جائيني مدمر ، ومعابد هندوسية مهدّمة . كان التصميم إسلاميًّا وعمال البناء من الهندوس . وبعدما استورد السلطان بنائين مسلمين ، بدأ تنفيذ مبنى المأذنة القائمة إلى اليوم فى أرباض دلهى ، وهى المعروفة باسم « قطب منار » ترتفع نيفا وسبعين متراً .

الفن الإسلامى الهندى ، فى نواحيه الصحيحة لا ينفصل عن الفن الإسلامى بعامة ، ولكنه يمت بصلات محسوسة إلى الفن الهندى الأصيل ، علماً بأن كلا منهما هو الضد الكامل للآخر : فالعمارة الإسلامية إبداع مهندس جرىء ، فن تجريدى منتظم الزخارف . خطوط وأقواس ومشتبكات متقابلة متكاملة . والفن الهندى غير منتظم ولا

متناسق ، لأن خلفياته الأولى أحراج كثيفة وآجام ، فهو يعكس الطبيعة الهندية ، فى ناسها وحيوانها ونباتها .

* * *

أمامى الآن مجموعة من نسخ المنمنمات الهندية ، مغولية إسلامية ، وهندوسية . وكلها واضحة التأثر بالمنمنمات الفارسية . حتى ليصعب على المرء أن يميز بين منمنمات المسلمين ومنمنمات الهندوس ، وإن استطاع أن يحس بخصائصها الهندية ، ربما فى التكوين ، وقطعاً فى التشخيص والخطوط . وجوهر المنمنمات مغولية وهندوسية ، يظهر فى رسم وتكوين الرياض ، وفى العناية بالحيوانات الأليفة من طواويس ويمام وغزلان . هذا رسم لرقصة بين عروسين ، وحولها قيان يعزفن اللحن الراقص ، وفوق الجميع مظلة ذات ألوان برتقالية ، تسبح وسط خضرة الأشجار المحيطة ببحيرة . والبحيرة الصناعية لازمة كبرى من لوازم المعبد الهندوسى ، وهى لازمة قصور المسلمين والهندوس على السواء تتحول فى الفن المغولى إلى عنصر جمالى ، وكأنها لازمة تردد الآية «وجعلنا من الماء كل شيء حى» . رأيت هذا فى المنمنمات ، وشاهدته فى الطبيعة ، وفى رياض الهند الإسلامية .

أحاول المفارقة بين المنمنم المغولى ، والمنمنم الهندوسى ، فلا يساعدنى إلا موضوع الصورة . والهندوسى شديد التعلق بأربابه ، وخاصة بالرب الغزل كريشنا ، ويصور دائماً باللون الأزرق . وهذا هو أمامى يرش زوجته الحبيبة «رادها» [رادا] بالماء الملون بالحمرة ، وتحت مظلة حمراء . لا فارق فى هذا المنظر ، خطوطه وألوانه ، وبين المنمنم الإسلامى الذى يصور عاشقين يتعانقان وسط روض اتخذت أشجاره الخلفية شكل الفسيفساء ، الروض على ضفة غدير ، منبثق من الصخور التى تؤلف دائرة الروضة . وخلف الصخور تمتد الطبيعة الهادئة تحف بها على البعد أشجار مظلمة . ثم هذا رسم عجيب لفتاتين فى عناق العشاق فوق مقعد . خلفيتهما سماء صافية الزرقة ، وكأن موضوع الرسم يشعر بوسام «ربطة الساق» ، وشعاره يحذرنا من «التفكير بالسوء» . ومنظر الصيد فى إمارة «بكانر» يمتطى فيه الراجا (وهو من السيخ) صهوة جواد أزرق ، يحيط به رهط الصيد مترجلين أوراكيين ، والطيور منتشرة فى الجو ، تطاردها البواشق .

ورسم العاشق يتدلى من نافذة المعشوقة فى الطابق العلوى ، متسلسلا لا نعرف إن كان نازلاً أو طالعاً سلماً من الحبال. وخلف نوافذ الطابق السفلى حرس غافل ، أو متغافل ، والليل ساجٍ ، والقمر هلال .

وما أجمل هذه المنمنمة من البنجاب ، تصور أميرة تطعم غزالاً فى روضتها ، تحت شجرة تتدلى أفرعها فى أقواس توازى انحناءة الأميرة على جذع شجرة منحنية فى اتجاه مقابل .

وهذا الراجا السيخ من البنجاب يدخن الحقة [= الشيشة] ، وهو جالس إليها القرفصاء ، وسيفه مستقر على السجادة . جاءته الابنة أو الحفيدة الطفلة تعانق رقبته بذراعيها .

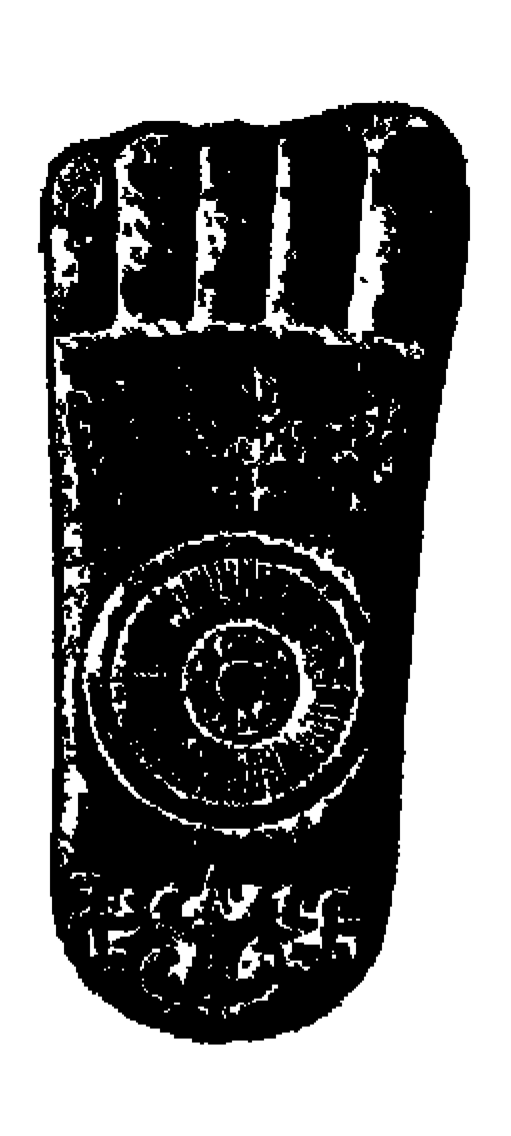
ثم «النواب» إبراهيم عادل شاه ، سلطان بيجابور يطعم الباشق تحت مراوح الخدم .

يتضح لى فى هذه المنمنمات شىء أهم من موضوعاتها ، وواقعيتها وهو : الخطوط والأقواس والألوان هى التى تؤثر فى المشاهد ، وتشيع نفسه السعادة والهناء الهادئ . ولا أظن صحيحاً أن نصف هذا الفن ، إسلاميًّا أو هنديًّا ، بالواقعية ، أو بالانطباعية . إنه قائم على التجريد للمخلوقات والجماد ، هنا حقا يستبين الفرق بين التجريد المطلق فى الأرابسكا والخط العربى ، وبين التجريد خلف الواقعية .

إن بلاد الهند الشاسعة ، شبه القارة ، وتاريخها الممتد على آلاف السنين ، حققت للخلف تراثاً متنوعاً فى التعبير الفنى بالعمارة والنحت والحفر والرسم ، تجعل من الرحلة الهندية متاعاً فنيًّا وتاريخيًّا ، يضاف إلى الاهتمام بما حققه أبطال الحرية الذين أنشأوا جمهورية الهند . فتتحول الرحلة إلى ثقافة متعددة الأطراف تتناول العقائد والسياسة والاجتماع والفن ، وحبذا لو أضاف الرحالة بعد عودته مطالعات فى ملاحم الهندوس ، وفى دراما «شاكونتالا» للشاعر كاليداشا ، وفى الباجافاد جيتا ، «والأوبانيشاد» .

والدور الحضارى الذى قامت به الهند فى آسيا ، يشبه ما أدته الحضارة الكلاسيكية (يونان ، وروما) والتوراة والإنجيل فى أوربا ، وسليلتها أميريكا . فإذا تأملنا أيضاً انتشار رقعة الحضارة الإسلامية فى الشرقين الأدنى والأقصى ، وفى شمالى أفريقيا ، ووسطها ، وفى الأندلس ، فإن ذلك قمين بأن يثبت لنا أن التعاليم الدينية شرقاً وغرباً ، وما جاءت

به الكتب المقدسة لأهلها ، هى أساس البناء الحضارى فى الشرق والغرب على السواء .
وإذا كان العالم الحديث قد تأثر بعصور التنوير والتحرر من أطماع الاستعمار ، فإن خير خاتمة رحلتى السندباد العصرى إلى الهند هى أن يتحدث إلى القارئ عن «**الإسلام فى جمهورية الهند**» .



الإسلام فى جمهورية الهند

تحدثت فى فصل سابق عن فتوح الإسلام فى الهند ، وواجب على إتمام الحديث عن الإسلام لا كغزو وفتح ، ولكن كعقيدة يعتنقها اليوم فى جمهورية الهند ستون مليوناً من المسلمين .

أقصى ما بلغه المسلمون فى شبه القارة الهندية ، حدث تحت حكم أسرة الخلجى (١٢٩٠م) ، وهذه هى الأسرة التى قضت على الفوارق بين الجنس التركى وغيره ، وبين معتنقى الإسلام من الهنود ، ومن ثبتوا على عقائدهم من هؤلاء ، وفتحت أبواب الوظائف للجميع . وبهذا تمكن سلاطين تلك الأسرة من توطيد حكمهم فى الشمال ، والاتجاه فى الفتح ، إلى الجنوب . ثم جاء بعدهم سلاطين التغلاق (١٣٢٠ — ١٤١٢م) ، فبلغوا مشارف الرأس الجنوبى لشبه القارة . وتلتهم أسرة السادات ، فالأسرة الأفغانية [= اللودى] ، التى أزاحها الغازى ببر فى معركة بانيبوت [١٥٢٦م] ، وأسس الأسرة المغولية ، وثبت حكم الإسلام فى الهند ، حتى نهاية أسرة المغول ، وسيطرة الحكم البريطانى ، فى أوائل القران التاسع عشر .

كانت ثقافة الأسرة المغولية التى نشأت فى أواسط آسيا ، متأثرة بحضارة إيران . وهى التى وصفت الفاتح ببر بالباديشاه ، أى الملك فى اللغة الفارسية . وقام حكم أسرته على أرستقراطية وافدة من وراء النهرين (سيحون وجيحون) ، من بخارى وسمرقند ، حيث ازدهرت حضارة عربية إسلامية ، ويعاون هؤلاء نبلاء من بلاد فارس . أما الأرستقراطية التركية والأفغانية التى تمثل بقايا الأسر السابقة على حكم المغول ، فقد أبعدت عن مراكز السلطة . وكان الجنس المغولى أقلية قادرة على الاحتفاظ بالسلطان ، مع السماح بالهجرات من آسيا الوسطى . إلى أن جاء وقت تمام اكتساب المهاجرين للجنسية الهندية . وبهذا أقفل باب الهجرة .

كان الإمبراطور المغولى هو الرئيس الروحى والزمنى للدولة ، يعمل بأمره وزير واحد يساعده سكرتاريون . وكان رئيس الإدارة الدينية يتمتع بين هؤلاء بمكانة ممتازة ، فهو القوام على الشريعة ، المتولى الصرف على دور العلم والعلماء ، بالإضافة إلى معونة الفقراء . وقاضى القضاة يتولى أكبر وظيفة لتطبيق الشريعة الإسلامية ، مع تولى إدارة شئون القضاء ، وشئون أهل الفتوى المكلفين بتفسير الأحكام الشرعية فى القضاء المدنى والجنائى بين المسلمين ، وغير المسلمين ، على مذاهب الأئمة الأربعة ، أركان السنة .

وسلاطين المغول ورجال دولتهم أهل أدب وعلم ، وكان السلطان ببروابنه جهانكير من الأدباء الممتازين ، محوطين بمجموعة من كبار أهل الرأى والفكر ، ذوى الثقافة الفارسية ، مما كان له أعمق الأثر فى نشأة اللغة الأوردية ، أوسع اللغات انتشاراً اليوم فى دولتى الباكستان والهندوستان . والأوردية تزاوج بين اللغات الهندية والفارسية والعربية ، قواعدها مؤسسة على السنسكريتية ، ومفرداتها فى أغلبها عربية وفارسية . والسلطان أكبر هو الآمر بترجمة القرآن الكريم والتوراة والإنجيل إلى الفارسية .

فى عصر المغول قامت تحركات إسلامية غير عادية ، من بينها حركة **المهدوى** ، وذلك حين زعم سيد محمد من جودبور (ولد ١٥٧١م) أنه المهدى المنتظر . وما تزال لهذه الحركة فئة باقية قليلة فى الهند والباكستان . وسبقت لنا الإشارة إلى محاولات السلطان أكبر التى تعدت الحواجز الشرعية ، ولم يبق منها أكثر من ترجيع الصدى فى جيل أوجيلين ، بعد وفاته .

وعندما استغرق ابن أكبر فى التصوف ، فقد جاوز هو أيضاً الحدود فى ميله الواضح نحو الهندوسية . وتآزر مع الصوفيين على تحقيق تكامل يسمح للمصالحة بين الإسلام والهندوسية ، فثار عليه المتعصبون لديانتهم ، وقتلوه .

ونشأ السلطان أورانجزيب على تعاليم الشيخ أحمد صرهند الذى أعاد صرح الشريعة ، وقاوم انحراف الصوفية . وقد ولد الشيخ أحمد عام ١٥٩٣م فى البنجاب ، واندرج شاباً فى طريقتى السهروردى والشستى ، ثم تحول إلى النقشبندية . وأدرك تدهور التعاليم لدى المتصوفة ، وحتى لدى الشيوخ [المُلاّ] . قال المتصوفة بوحدة الوجود ،

وفى هذا انحراف ومخالفة خطيرة لمبدأ التفرقة بين الخالق والمخلوق . وكانت لكتابات الشيخ أحمد صير هند أثر كبير فى بلاط المغول ، وفى رجال الجيش .

وإذا كانت إمبراطورية المغول قد أصابها الوهن بعد وفاة أورانجزيب ، فإن كتابات وبحوث عصره لم تتوقف عن التقدم والتطور ، وخاصة فى اكتمال مكونات اللغة الأوردية ، وإثراء آدابها ، إلى جانب الأدب الفارسى .

لم يمنع عصر التدهور السياسى من ظهور مفكر ذى شأن كبير ، هو شاه ولى الله (توفى ١٧٦٦م) ، فقد تركت آراؤه أثراً بعيداً فى نمو الفكر الدينى إلى درجة أنها تعد إرهاصاً لفكرة الباكستان فيما بعد ، وبفضل أفكاره ونظراته ونشاطه السياسى ، تحرك التيار المؤدى إلى كفاح المسلمين فى طلاب التحرر من الاستعمار البريطانى ، وكان ولى الله شديد الحساسية بما أصاب الإسلام نتيجة لتفكك دولة المغول . كما أدرك أن العصر لم يعد يتأثر بالملوك ولا بالحكم المطلق . فكان وجوده بشيراً بتحقيق المساواة بين المسلمين . ومن بواكير أعماله ترجمة القرآن والتفسير إلى اللغة الأوردية ، مما أثار عليه العلماء المحافظين. وألف فى الحديث هوامش على الإمام ابن مالك بتوكيد كامل على الأحاديث التى تتناول الأمور الشرعية . فعرف فى تاريخ الإسلام فى الهند بمؤسس «أهل الحديث» ، وبرفضه الكامل للمذهب الشيعى ، وبنظره الثاقب إلى الإسلام كدين مبادئ لا أشخاص ، دين اجتماعى يستجيب لحاجات البشر فى كل زمان ومكان .

عانى الإسلام فى مطالع الحكم البريطانى أزمة اقتصادية وسياسية ، وبينما اندفع الهندوس لقبول ذلك الحكم ، والأصح القول بأنهم لم يتحرجوا – كالمسلمين – فى تلقى المعارف الحديثة على أيدى حكامهم الأجانب . وحقاً كان المسلمون أقل استعداداً لقبول الوضع الجديد كلا كاملاً ، مترفعين عنه بحكم سلطانهم السابق فى الدول الإسلامية المتعاقبة على الهند : تركية ، وأفغانية ومغولية ، رافضين لما يجىء به المستعمر من حضارة دخيلة ، الإسلام فى غنى عنها . فأثار ذلك شكوك البريطانيين فى إمكان التعاون بين المسلمين وبينهم .

ثم جاء السير سيد أحمد خان ، منشئ جامعة «اليجاره» [عليكَرْه] عام ١٨٧٥ ، وبدأ حقبة جديدة على أساس التعاون الحضارى مع البريطانيين . وتوجيه المسلمين إلى

التربية والتعليم بوسائل الحضارة الغربية الوافدة . فعل ذلك فى مواجهة معارضة شديدة من جانب السلفيين المترمتين ، يحضون على مقاومة هذه الحضارة .

وعندما اتجه الهندوس – بعد أن قوى مركزهم الاقتصادى . وتقدمهم الفكرى – إلى المسلمين ليؤازروهم فى الكفاح ضد المستعمر ، رأى السير أحمد خان فى هذا التحرك مجرد طلاب من الهندوس للسيطرة السياسية ، فبادر بتأليف جماعة «الرابطة الإسلامية» ، حتى لا يتأخر المسلمون عن حركة المطالبة بالحكم الذاتى .

ولكن حروب البلقان ، وغزو الإيطاليين لطرابلس الغرب ، وتفتيت تركيا بعد الحرب العالمية الأولى ، قضت على فكرة السير أحمد فى التعاون مع البريطانيين ، عندما أفعمت نفوس المسلمين مرارة حيال موقف البريطانيين من دولة الخلافة العثمانية ، فهجروا «الرابطة الإسلامية» وفضلوا عليها الانضمام إلى «حزب المؤتمر» القومى الهندى ، و بأعداد كبيرة . وتحول المؤتمر إلى قوة متماسكة نجحت وشيكا فى إقرار البريطانيين للحكم الذاتى فى الولايات . وفى عام ١٩٣٧ كون المؤتمر القومى وزارات من أعضائه فى سبع ولايات من إحدى عشرة ولاية .

وأحس المسلمون عقب هذا بسيطرة الهندوس فى المجال السياسى ، فعاد الكثير منهم إلى «الرابطة الإسلامية» . ويعتبر هذا الانضمام من بوادر فكرة الباكستان ، لإقامة دولة مستقلة عن الهندوستان فى الشمال الشرقى (البنغال) والغربى من شبه القارة ، أى فى مناطق تقطنها أغلبية مسلمة ، وهى الفكرة التى تحولت إلى فعل عندما أنهى البريطانيون حكمهم فى الهند ، ورضوا بالتقسيم . فقامت الباكستان فى أغسطس عام ١٩٤٧ . وبهذا يمكن اعتبار جامعة «عليكره» ذات فضل كبير على هذا التحرك .

وكما قامت كلية كلكتا الهندوسية [من آثار المصلح الهندوسى رام موهان روى] على مقاومة المبشرين المسيحيين ، فقد عمل السيد أحمد خان فى الطريق ذاته ، ولكن على أساس تحرر المسلمين من التمسك بتقاليد وعادات تعرضهم لتهجم المبشرين . فكان من رأيه أن الأحاديث الشريفة التى لا تتحمل تفسيراً متعدداً يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات : ما يتفق منها مع آيات القرآن الكريم ، أو يفسرها ، والأحاديث التى لا تحتوى على إشارة إلى ما جاء بالقرآن ، وأخيراً : الوحى مجدد بما نزلت به الآيات خاصًا

بالرسالة ، كقواعد السلوك ، وواجبات المسلم ، والفروض ، وأوصاف الجنة والنار . أما فيما عدا هذا من الأحاديث الشريفة ، فيتعين على أرباب الاجتهاد أن يفحصوا الأحاديث التى تتصل مباشرة بعادات وتقاليد مجتمعات الجزيرة العربية فى عصر النبوة ، وكذلك ما يتعلق منها بشئون الإدارة والسياسة ، فلا تكون هذه الأحاديث ملزمة إلا لأسباب مقنعة .

ووضع السيد أحمد سنة ١٨٧٥ تفسيره للقرآن ، محذراً ممن يحاولون تفسير آياته بمجريات العلوم العصرية ، حتى لا يتسنى النيل من كتاب الله ، عندما تتطور وتتقدم المعارف والعلوم ، وتتغير نظراتها وأحكامها .

أثار ذلك على السيد أحمد خان احتجاج المحافظين الذين اندفعوا فى تفاسيرهم حسبما يريدون . وأدى هذا إلى مناداة السيد أحمد برفض الحديث ، والاكتفاء بما جاء فى كتاب الله الكريم . وهنا انتهى شأن السيد أحمد ، إذ لم يقدر له نجاح فى قليل أو كثير مما نادى به ودعا إليه . ولو أن حركة تحرر جديدة قامت صدى لدعوته ، تزعمها أمير على فى كتابه « روح الإسلام » علماً بأن هذا المؤلف وضع نفسه فى صف من سماهم « المعتزلة الجدد » ، يؤمن بأن لا تعارض أصلايين الوحى والعقل .

كما ظهر من بين أقران وأصحاب السيد أحمد المؤرخ شبلى الذى حاول التوقف عند حدود معينه فى تفهم الإسلام ، مستبعداً ما ذهب إليه السيد أحمد من متاهات ، المسلمون فى غناءٍ عنها .

كتب شبلى فى السيرة النبوية ، وسير عمر بن الخطاب ، وأبى حذيفة والغزالى . وكلها تثير فى قرائها نخوة المسلم ، واعتزازه بالماضى الزاخر الزاهر .

وشبلى هو مؤسس « الندوة » ، وهى حركة إسلامية أقامها بمدينة لكنو ، متقبلة للعلوم والمعارف الحديثة ، دون مساس بحقائق الإسلام ، وفرائضه ونواهيه .

« وقد احتفلت مدينة لكنو قبل ختام سنة ١٩٧٥ فى مهرجان إسلامى فخم ، بمرور خمسة وثمانين عاماً على مولد ندوة العلماء ، حضرها ورأس مؤتمرها صاحب الفضيلة ، الإمام الأكبر ، الدكتور عبد الحليم محمود ، بدعوة من الرجل الصالح العالم ، السيد أبى الحسن الندوى . وكان هدف الدعوة يتمثل فى أمور كثيرة :

أولها : عرض حصيلة الدراسات الطويلة ، والتأملات المستفيضة حول الصراع الفكرى الدائر بين الإسلام واللادينية ، وبين الإسلام والفكر الغربى .

أما الأمر الثانى : فيتعلق بالدور الحيوى الرائع الذى يمكن أن تمثله أقلية إسلامية تعيش فى (جمهورية الهند) ، والظروف التى تجتازها ، والمشكلات التى تعيشها ، كمرابطين بفضل الله على الثغر ، وحارسين لأمانة الإسلام ، وأوفياء لدين الله ، وأمناء على حرمة الدعوة وسموها ، وأصالتها ، ونزاهتها .

والأمر الثالث : وهو الموضوع الأساسى – يتعلق بقضية تطوير المناهج التعليمية ، ووضع منهج مستقل يحقق متطلبات العصر ، وحاجات الجيل أو يقوم على أساس الكتاب والسنة ، والفهم الدينى السليم .

« وحضرت وفود كثيرة من البلاد الإسلامية ، وخصوصاً من المملكة السعودية ، وافتتح المهرجان بتلاوة آيات من كتاب الله الكريم ، ثم كانت كلمة رئيس جمهورية الهند ، وبعدها مباشرة تليت كلمة الزعيم المؤمن محمد أنور السادات . . . نالت استحساناً عظيماً . » [من حديث بعنوان : « الإمام الأكبر يتحدث عن مشاكل العالم الإسلامى » بمجلة « الإذاعة والتليفزيون العدد ٢١٢٥ ، بتاريخ السبت ٣ من ذى الحجة ، الموافق ليوم ٦ ديسمبر ١٩٧٥] .

* * *

هذا ومولانا أبو الكلام آزاد ، الذى تولى وزارة معارف جمهورية الهند حتى وفاته عام ١٩٥٨ ، واحد من أنصار المؤرخ شبلى . وقد ارتفع شأوه كاتباً من أعمق الكتاب معرفة وتمكناً من الفارسية والعربية ، ومؤلفاً فى اللغة الأوردية . وقد قام على إصدار مجلتين بكلكتا .

رأى مسلمو الهند فى كتابات آزاد حافزاً على تقوية فكرة « الجامعة الإسلامية » ومشجعاً على الاهتمام بالدراسات القرآنية ، والاعتماد عليها فى تهيئة وتكوين الفكر السياسى .

ثم تحول أبو الكلام عن فكرة « الجامعة الإسلامية » عندما انضم وطنيًّا هنديًّا صميماً إلى المؤتمر بفكره السياسى الناضج . وكان من أقوى وأعز أنصار المهاتما غاندى .

وتحوله هذا لم يغير شيئاً فى ضمائر من تابعوه مجاهداً إسلامياً . ولكنهم افترقوا عنه كلّية عندما حاول فى كتابه الأخير وضع أسس للتآخى بين الإسلام والديانات الأخرى ، واستنكروا وضعه للإسلام فى موازاة غيره من الأديان .

وكان السيد محمد إقبال (توفى عام ١٩٣٨) ممن تأثروا بتعاليم مولانا أبو الكلام آزاد الأولى . والعجيب فى هذين العلمين من أعلام المسلمين أن آزاد ، ربيب التعليم الدينى القويم ، هو الذى آزر القومية الهندية والفكر العلمانى . بينما انحاز محمد إقبال ، خريج الحضارة الغربية ، إلى فكرة الجامعة الإسلامية ، وطالب بالعودة إلى تعاليم الدين الحنيف ، ومحمد إقبال فى رأى من كتبوا عن الإسلام فى شبه القارة الهندية : الفيلسوف الإسلامى الأوحد فى العصر الحديث . وهو رأى لا يقره المسلمون العرب ، مع إعظامهم لمقامه مفكراً وكاتباً وشاعراً مفلقاً فى اللغتين الأوردية والفارسية .

ولعل أهم ما قام به فى أشعاره هو مقاومته للتصوف المتأثر بفكر دينى خارج من الإسلام . ومحمد إقبال يعتقد أن تدهور الثقافة الإسلامية فى شبه القارة الهندية نشأ عن فلسفة متصوفيها . وقد بلغ تأثيرها فى مسلمى الهند أن زينت لهم احتقار الأمور المادية . والإسلام ، حسب أصوله الراسخة ، يؤكد فى المسلم شخصيته ليعمل على رفعة الأمة الإسلامية كقوة عالمية . ومحمد إقبال واضح التأثر بفلسفة نيتشه فى « السوبرمان » ، وإن كان الفيلسوف « الباكستانى » يسميه « رجل الإيمان المسلح بقوى مادية وروحية تتوحد فى المسلم » . وإقبال معارض صارم للوطنية الهندية وفلسفتها السياسية التى تجلت فى إنشاء دولة علمانية .

وفى مجموعة محاضراته المنشورة بعنوان « إعادة بناء الفكر الدينى فى الإسلام » ، يظهر تأثره الواضح بفلسفة الغرب . فقد أخذ عن برجسون موقفه السلبى من العقلانية ، وتقديم الشوق ، أو الرغبة ، على العقل . كما أخذ عن ماك دوجال فلسفته فى « الذات » . وعجيب من شاجب التصوف أن يفضل الشوق على العقل ، وأن يسمو بالحدس عن الرشاد . ثم هو مناقض ذاته بعد كل هذا ، عندما ينقد برجسون ، ويناقضه إذ يقف منه فى صف الرشاد معانقاً العاطفة ، أو العقل متحداً مع القلب .

وعند إقبال أن المسلمين المعاصرين فى سبيل تحول شبيه بما صنعت أوربا فى عهد

الإصلاح « البروتستانتى » . وهو لا يعترض على الأفكار التحررية ، وإن كان قد حذر من اللبرالية « فهى تميل إلى التحرك كقوة تفكك » ، وشجب حركات الإصلاح الإسلامية « لأن النظرة الملية فى التاريخ تكشف لنا عن البروتستانتيه فى صميمها كحركة سياسية ، نتج عنها إجمالاً فى أوربا ، تحول الأخلاقيات المسيحية إلى نظام سلوك قومى . . . ويبدو لى كأن الله تعالى يؤكد لنا بأن الإسلام ليس حركة قومية إمبريالية ، وإنما الإسلام عصبة أمم . »

وإقبال ليس الموحى فكريًّا بحركة الباكستان فحسب ، بل لقد أدى دوراً فعالاً فى خدمتها . فكان أول رائد تحقق من أن لامندوحة عن الفصل بين المناطق ذات الأغلبية الإسلامية ، وبين مناطق الأغلبية الهندوسية . فلا جدوى عنده ترجى من أية ضمانات دستورية تحمى المسلمين من الطائفية الهندوسية . وكان البطل القومى ، منشئ دولة الباكستان ، محمد على جناح ، بالغ التأثر بمساجلاته مع محمد إقبال ، إلى درجة أن حمل على كاهله الكفاح فى سبيل تحقيق حركة الباكستان ، فَضْلاً عن الهندوستان .

وبينما كان السير أحمد خان ، والسير محمد إقبال مشتغلين بمشكل الحضارة الغربية ، ومؤثراتها فى الإسلام ، قام كفاح إسلامى فى مواجهة التبشير المسيحى ، وحركات الإصلاح الهندوسية ، وأهم صورة لهذا الكفاح هو المعروف « بالقاديانية » ، أثاره ميرزا غلام أحمد من بلدة قاديان فى البينجاب (ولد عام ١٨٣٥) . وانفعلت الجموع بمساجلاته مع المبشرين المسيحيين ، ومع حركة «آرياسماج» الهندوسية فتابعته . بيد أن الرجل اندفع فى حماسة إلى ادعاء أنه « المهدى المنتظر » [حوالى عام ١٨٩٣] . ثم انزاح عن الإسلام عندما تخلى عن الحقيقة التاريخية لدى المسلمين ، وهى أن محمداً (ﷺ) خاتم النبيين ، فزعم ، والعياذ بالله ، أن من واجبات المسلم الاعتراف بنبوته هو ميرزا غلام أحمد ! !

كما أنه رفض مبدأ « الجهاد » فى الإسلام ، منتهياً إلى التعاون مع البريطانيين فى وقت كانت الأغلبية الساحقة لمسلمى الهند تلعن عمل بريطانيا ضد دولة الخلافة العثمانية ، ثم تطالب بإعادتها ، وقد أزالها كمال أتاتورك ، وتعلن الجهاد فى سبيل عودتها .

وبذلك انعزلت القاديانية عن مجموع مسلمى الهند ، وتضاءلت إلى حركة محلية فى

البنجاب . ودخل محمد إقبال المعمعان ضدها ، وحرر رسالة مطولة إلى البانديت جوهر لال نهرو ، هاجم فيها حركة الزيغ تلك التى تحولت عن مكة المكرمة . . . إلى بلدة قاديان (كذا!) ، وقال إن أنصارها بهذا وبغيره قد انفصلوا نهائيًّا عن روح الإسلام العالمى .

وغلاة القاديانية يتهمون المسلمين بالوثنية (كذا!) ، وإن كان المعتدلون منهم يتفضلون على سائر المسلمين بوصفهم من أهل الكتاب ، أى بحسبانهم كتابيين كالمسيحيين واليهود ! ! وقضى الأمر فى القاديانية التى تضاءلت فى ركنها من العالم إلى بضعة آلاف من الأنفس .

ويخطئ من يحسن الظن بالأحمدية المتفرعة عن القاديانية ، برعاية مولانا محمد على ، والخوجة كمال الدين بمدينة لاهور . فالأحمدية ترفض مصاهرة المسلمين . ولكنها عملت على نشر الإسلام فى أوربا وفى العالم الجديد . كان لها قبل الحرب العالمية مركز فى برلين ، وهى التى أقامت مسجداً بضاحية ووكنج فى إنجلترا ، وحققت بعض النجاح بين السود فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى خضم الشقاق بين التجديد الإسلامى ، والقومية الهندوسية العلمانية ، والشيوعية ، قامت حركة مولانا أبى العلاء مودودى (ولد ١٩٠٤) الذى قام بالدفاع عن الإسلام دينا وحضارة ، وأنشأ مجلة شهرية باللغة الأوردية فى مدينة حيدر أباد أيام إمارة «النظام» [لقب الأمير] . وكانت عاصمة هذا الأمير الشهير (الذى صاهر آخر خلفاء آل عثمان ، بعقد زواج ولده بابنة الخليفة العثمانى) مركز ثقافة إسلامية ، وأدب أوردى ، بعد إنشاء جامعتها المسماة «بالعثمانية» . وهى أول جامعة استخدمت اللغة الأوردية فى التعليم الحديث .

وما من شك فى أن مقالات مودودى أقامت سدًّا منيعاً أمام القوى المعادية للإسلام . وهذه القوى فى نظره هى الشيوعية ، والعلمانية ، والتحديث . ونجحت فى تحويل بعض الشباب المسلم عن الشيوعية ، والبعض الآخر عن التحديث . بيد أن هؤلاء وأولئك قلة بالنسبة للقوميين المحافظين ، الرافضين للاستماع إلى مودودى .

ومودودى يعارض «الرابطة الإسلامية» ، والجناح الإسلامى فى المؤتمر الهندى ،

سواء بسواء . فالإسلام عنده لا يؤلف أمة من الأمم ، وإنما هو عقيدة «المسكونة» ببرنامجه الاجتماعى والاقتصادى . وقصارى القول ومعناه : أن مودودى يرفض قيام الباكستان الإسلامية ، والهندوستان العلمانية ، لا لسبب إلا لقيام الدولتين على فكرة القومية ، أو الوطنية . ومودودى يطالب بدولة الإسلام العالمى . فهذه هى الدولة الحقة ، لا مجرد الفصل بين المسلمين والهندوس . لا فرق عند مودودى بين برنامج «الرابطة الإسلامية» وبرنامج المؤتمر القومى «الهندى»، كلاهما ينشد الرقى المادى لأصحابه ، نقلاً عن مادية الغرب . والرابطة تجاهد ضد الهندوس لمجرد الاستحواذ على السلطة ، والفوز بالوظائف ، والكسب المالى ، والرواج التجارى . وفى نشرة له بعنوان «عملية الثورة الإسلامية» يقول بأن الثورة الصادقة يجب أن يسبقها ، ويهيئ لها ، تحول فى العقول ، وأن يقودها رجال مؤمنون ، يمارسون فضائل الإسلام ، ويدافعون عن استواء الحقوق بين المسلمين ، فهم كأسنان المشط ، وما أحوج الإسلام إلى المواعظ والخطب ، والكفاح والألم .

وكان جمع غفير من ألباء المسلمين ، وخاصة من يجهلون الحضارة الغربية ؛ يتحمسون جدًّا لكتابات مودودى ، فاستطاع أن يؤلف من بينهم عام ١٩٤١ [والحرب العالمية الثانية قائمة]حزباً يشترط فيمن ينضم إليه الصلاح والتقوى ، وأن يقضى فترة من الزمن تحت الاختبار والتجربة . ولهذا ظل الحزب قليل العدد ، بالنسبة للمتحمسين خارجه .

وفى الأعوام الأخيرة من الحكم البريطانى ظهر مفكر دينى اسمه عبد الله السندى [ولد سنة ١٨٧٢] فى أسرة على ديانة السيخ ، ولكنه غادر مسقط رأسه فى مطالع حياته ، واعتنق الإسلام . وأوفد بعد تخرجه من جامعة دبوباند (الإسلامية) إلى كابل حاضرة الأفغان ليؤسس فيها شعبة للمؤتمر الهندى القومى . وكان عبد الله دائم الاتصال بالهنود المجاهدين فى سبيل الاستقلال ، سواء فى داخل الهند ، أو من المنفيين فى موسكو وبرلين . وقضى هو نفسه عاماً فى الروسيا الشيوعية ، وانتقل منها إلى تركيا معجباً بثورتها ، ثم جاور فى مكة ردحاً من الزمن يتدارس أعمال شاه ولى الله . . وعاد من المنفى بتوسط المؤتمر الهندى لدى الحكم البريطانى فى أخرياته . فما لبث حتى برم بالمؤتمر ،

معارضاً لحركة الإحياء الهندوسية التي تزعمها المهاتما غاندى . فمن رأى عبد الله السندى وجوب قيام الهندوستان على قوميات متعددة ينال فيها كل أكبر قدر من الحرية السياسية واللغوية والثقافية .

لم ينجح السندى فى ضم شمل عدد من الأنصار ، لأنه كان يتحرك بين قوى متعارضة ، ويحاول التوفيق بين مبادئ متنافرة . فهو رجل ثورى بطبعه ، صادق الإسلام بتربيته ، معجب بالشيوعية الدولية ، والعلمانية التركية . يحاول أن يجمع بين هذا الشتيت فى ثورة تقوم على دعائم الدين الحنيف ، وحول مبادئ شاه ولى الله . وهو عند عبد الله السندى ، أعظم فلاسفة الإسلام طرًّا .

ولا بأس من الإشارة إلى حركة ظهرت قبيل التقسيم ، كانت واضحة التأثر بفلسفة محمد إقبال فى مذهب القوة ، تزعمها المدعو عناية الله خالد مشرقى ، من لاهور ، على أسس عسكرية ، أسوة بالمسلمين الأوائل ، من كانوا كافة جنود الله . وتعرف هذه الحركة «بالخاصكار» تقوم على النظام الصارم ، والطاعة العمياء ، وحياة التقشف . وقد تدخلت بمدينة لكنو فى الصراع بين السنيين والشيعة ، كما أقام عناية الله مشرقى بالمدينة معسكراً لرجاله ، وتحشر بهم لحزم النزاع الدينى بين الطوائف . فضاقت حكومة المؤتمر الهندى ذرعاً بالرجل وبحركته ، واعتقلته بعض الوقت . وانتهت حكومة الهند البريطانية إلى حلّ حركة الخاصكار عندما أحسّت بميولها النازية .

وقصارى القول : إن مسلمى الهند استردوا اتزانهم ، وثقتهم بأنفسهم ، بعد الضيق والضياع واليأس الذى ران عليهم فى أعقاب التقسيم ، بل لقد حققوا نجاحاً مرموقاً إلى حد أن المراقبين المحايدين يعتبرون الحياة الدينية للمسلمين فى جمهورية الهند أوسع وأرحب وأيسر منها فى الباكستان . وهذا على الرغم من أن حركة تعميم اللغة الأوردية ، وجعلها لغة قومية للهندوستان لم تلق قبولاً من الهندوس بزعامة غاندى الذى نجح فى أن تكون الهندية هى اللغة القومية . بيد أن مسلمى أقاليم الشمال وفقوا إلى وضع اللغة الأوردية فى المركز الأول لدى سكان تلك الأقاليم . هذا وما برحت اللغة الأوردية واسطة الاتصال بين مسلمى الهند ، والباكستان ، يتبارى فى خدمتها شعراء الدولتين وأدباؤهما .

ويقابل حركة مودودى فى الباكستان حركة لمسلمى الهند تعرف « بالتبليغ » ، بدأت قبل التقسيم بزعامة مولانا إلياس الذى استطاع بحياته النموذجية ، وبلاغته الخطابية أن يحول بعض الهندوس إلى مسلمين . وأهم من هذا أن أتباع « التبليغ » يعيشون أمثولة فى القيام بفروضهم الدينية ، ويوفدون الوعاظ إلى القرى لحضّ الأهلين على التمسك بقواعد الإسلام وشعائره .

* * *

ونسبة الشيعة فى الهند لا تتعدى العشرة فى المائة ، يعيشون حياة وادعة ، ويتجنبون الاحتكاك بأهل السنة ، حتى أصبح التزاوج بينهم ممكناً . ومما يسر الأمر بين الفريقين أنهم يضعون عترة على والحسين فى خير مكان من قلوبهم ، ويكره السنيون أى مساس بالشيخين أبى بكر وعمر . والحق أن الخلاف بين السنيين والشيعة فى الهند لا يبلغ أعماق العقيدة ، وإن تناولت بعض التعديل فى فريضة الصلاة ، فالشيعة تسمح بضم صلاة الظهر بما بعدها حتى صلاة العشاء ، وتتمسك بالأحاديث النبوية فى نطاق ما أثر منها عن على كرم الله وجهه ، وعن عترته .

ومما يسر الأمور ممارسة الشيعة لما يعرف « بالتقيّة » وتعنى توقى الحزازات بإخفاء مذهب التشيع فى وسط أغلبية سنية ، مع عدم الجهر بالإساءة إلى الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان ، علماً بأن السنين والشيعة على اتفاق تام فى لعن يزيد بن معاوية الآمر بمقتل الحسين * .

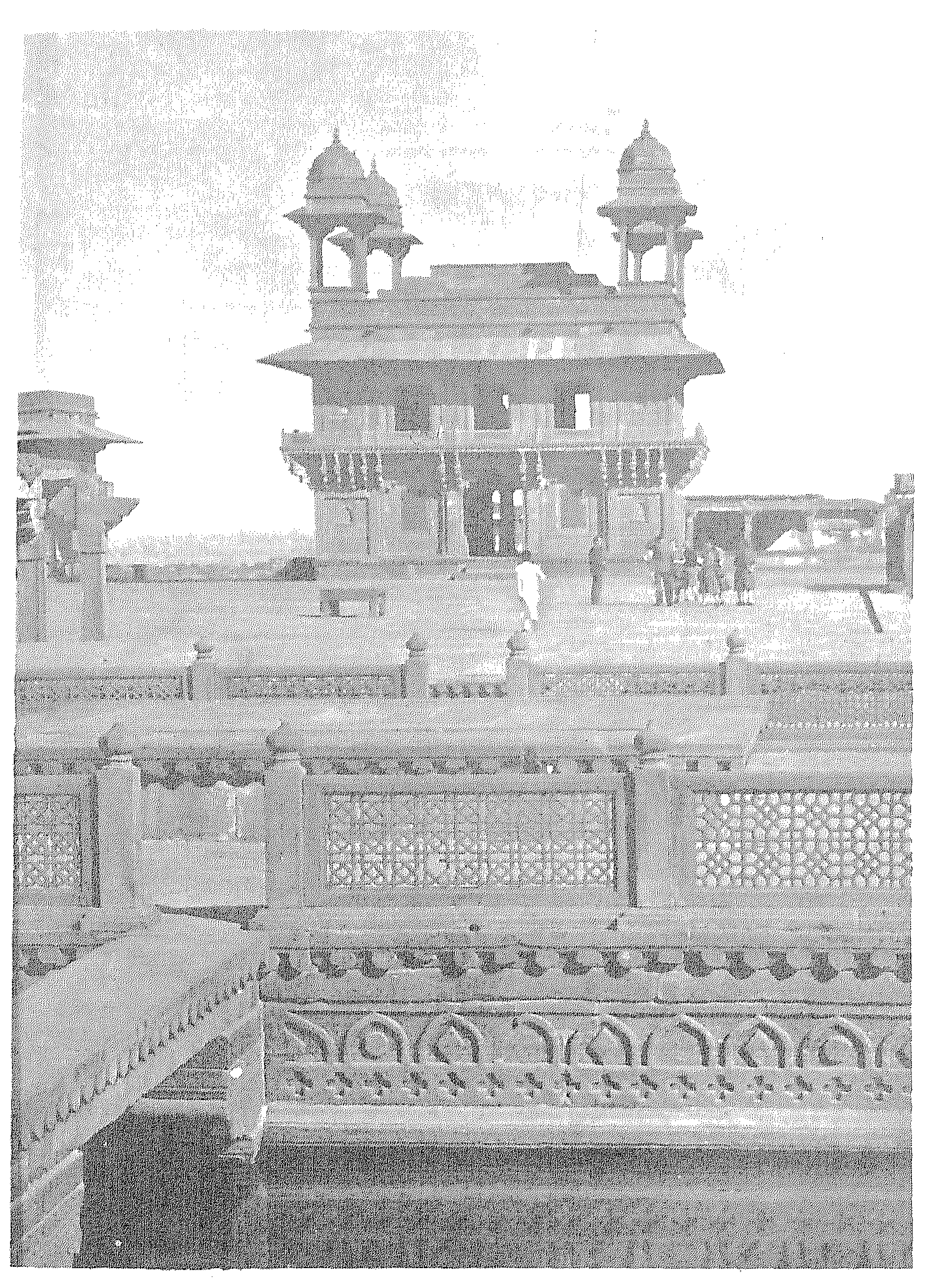
القاهرة ١٩٧١

---

* هذا مجمل ما جاء فى بحث للأستاذ مظهر الدين صديقى ، رئيس قسم التاريخ الإسلامى بجامعة السند ، ضمن بحوث جمعها أستاذ أميريكى فى كتاب قيم ، عنوانه « الإسلام — الطريق السوى » ، قام بكتابتها أحد عشر عالماً مسلماً يتقدمهم فضيلة الشيخ محمود شلتوت ، والدكاترة أبو العلا عفيفى ، وعبد الله دراز ، ومحمد شفيق غربال ، عليهم رحمة الله أجمعين ، ومعهم علماء من الصين وإندونسيا وفلسطين وإيران وتركيا وباكستان . وقدمها للنشر كنيث مورجان الأستاذ بجامعة كولجيت . والناشر شركة رونالد للطباعة بنيويورك . وتاريخ النشر سنة ١٩٥٨ .

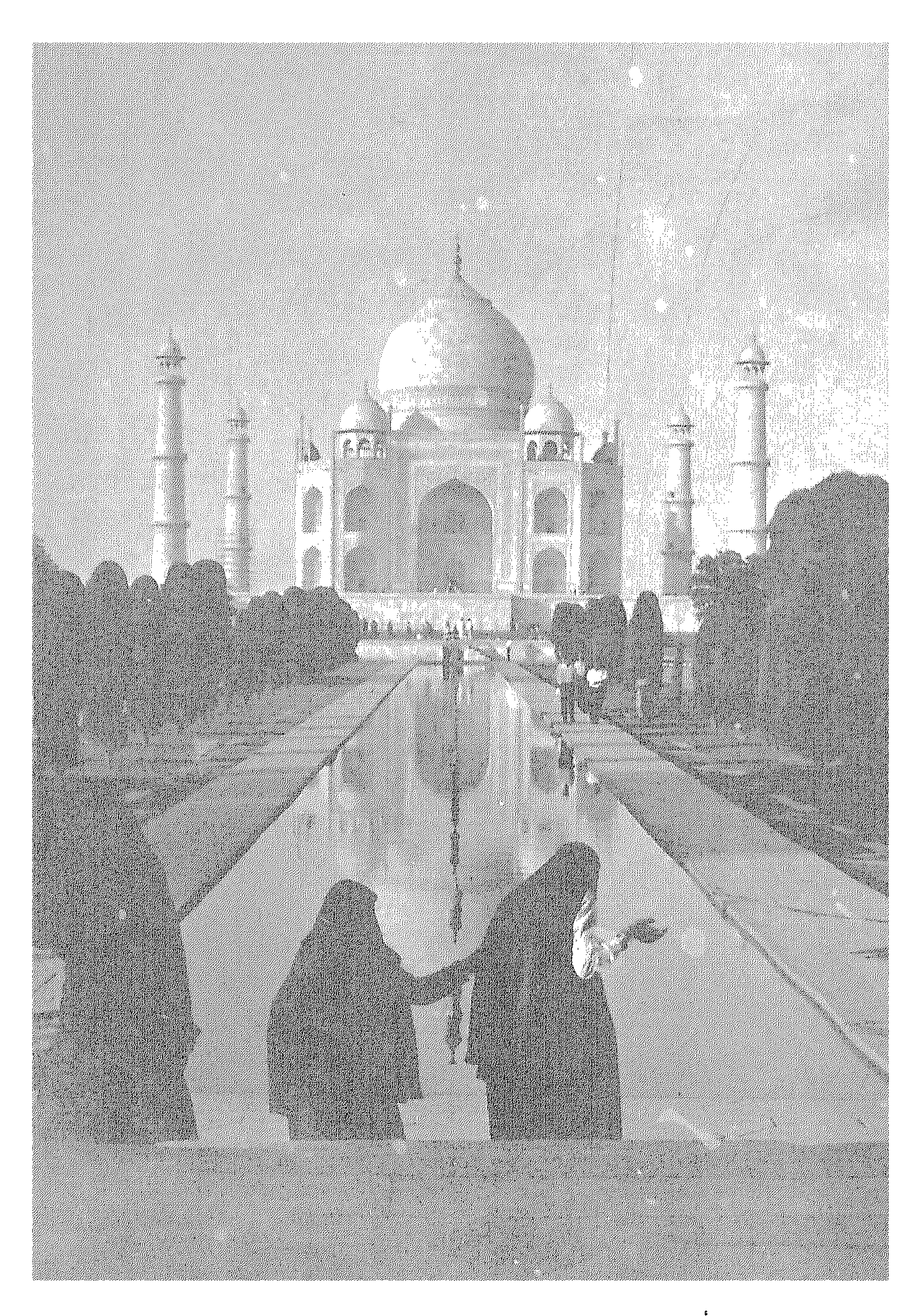
فاتح – بور سيكرى . ديوان الخاص ، ويقال بأنه عبادات – خانة
[أنظر صفحة ٣٧ آخر الفصل]

مدفن همايون ، بمدينة دلهى القديمة . (١٥٧٢ ميلادية)



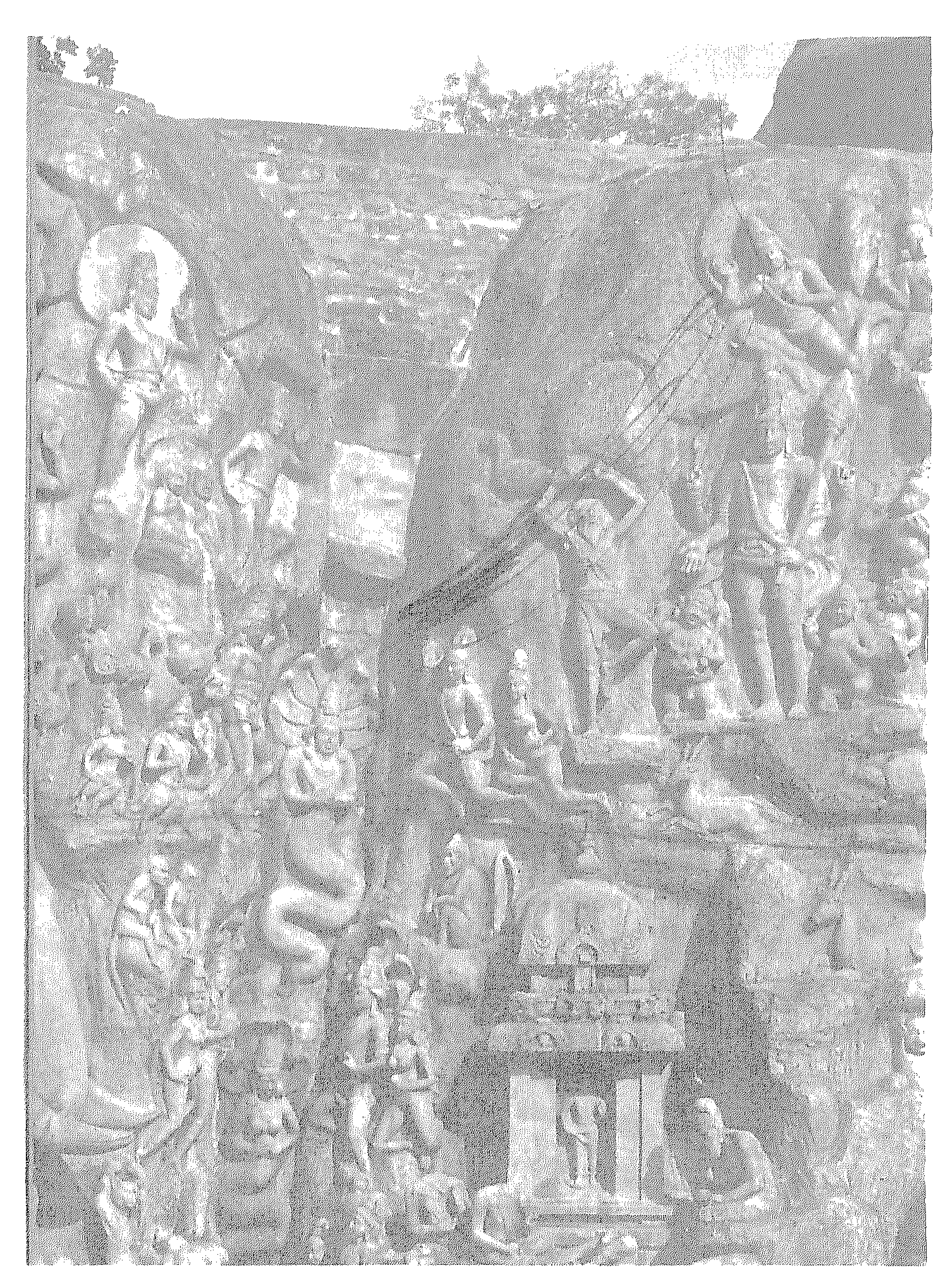
سيكاندرا . مدفن السلطان أكبر . بضواحى أجرا

[أنظر صفحة ٣٧ حتى آخر الفصل]



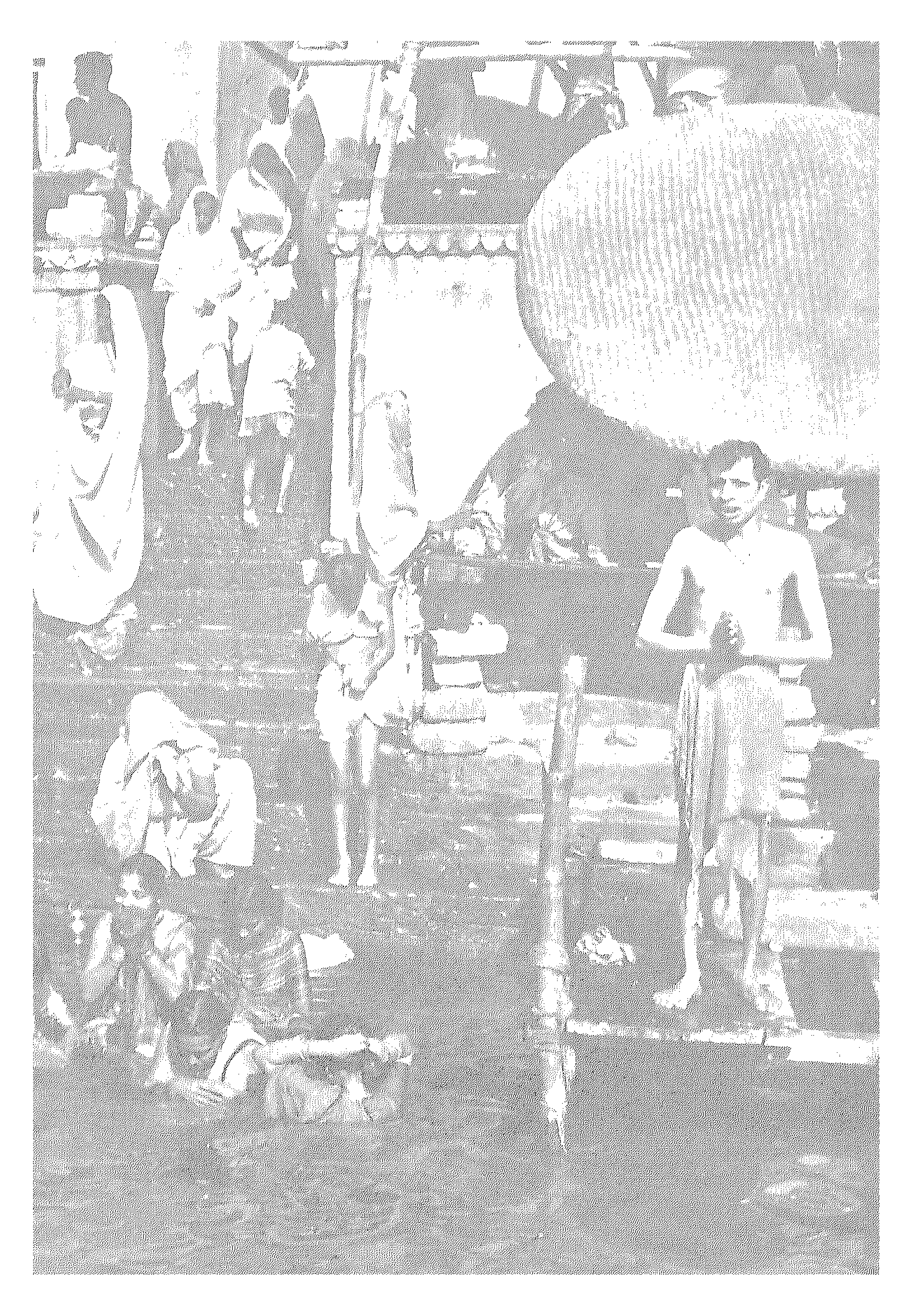
تاج محل . بمدينة أجرا . مدفن ممتاز- محل ، وبعلها السلطان شاه جاهان . (١٦٢٩-١٦٦٦م)

[أنظر صفحة ٤٤ حتى آخر الفصل]



صخرة «ماهابالى بورام» طولها ٩٥ قدماً ، وارتفاعها ٤٢ قدماً . قسمها الأوسط ، رمز لنهر الجنج المقدس . ينحدر فى صورة الملك – الثعبان . وكافة المخلوقات من إنسان وحيوان ، تتعبد فى اتجاه الرموز

[أنظر من صفحة ٥٠ حتى صفحة ٦٤]



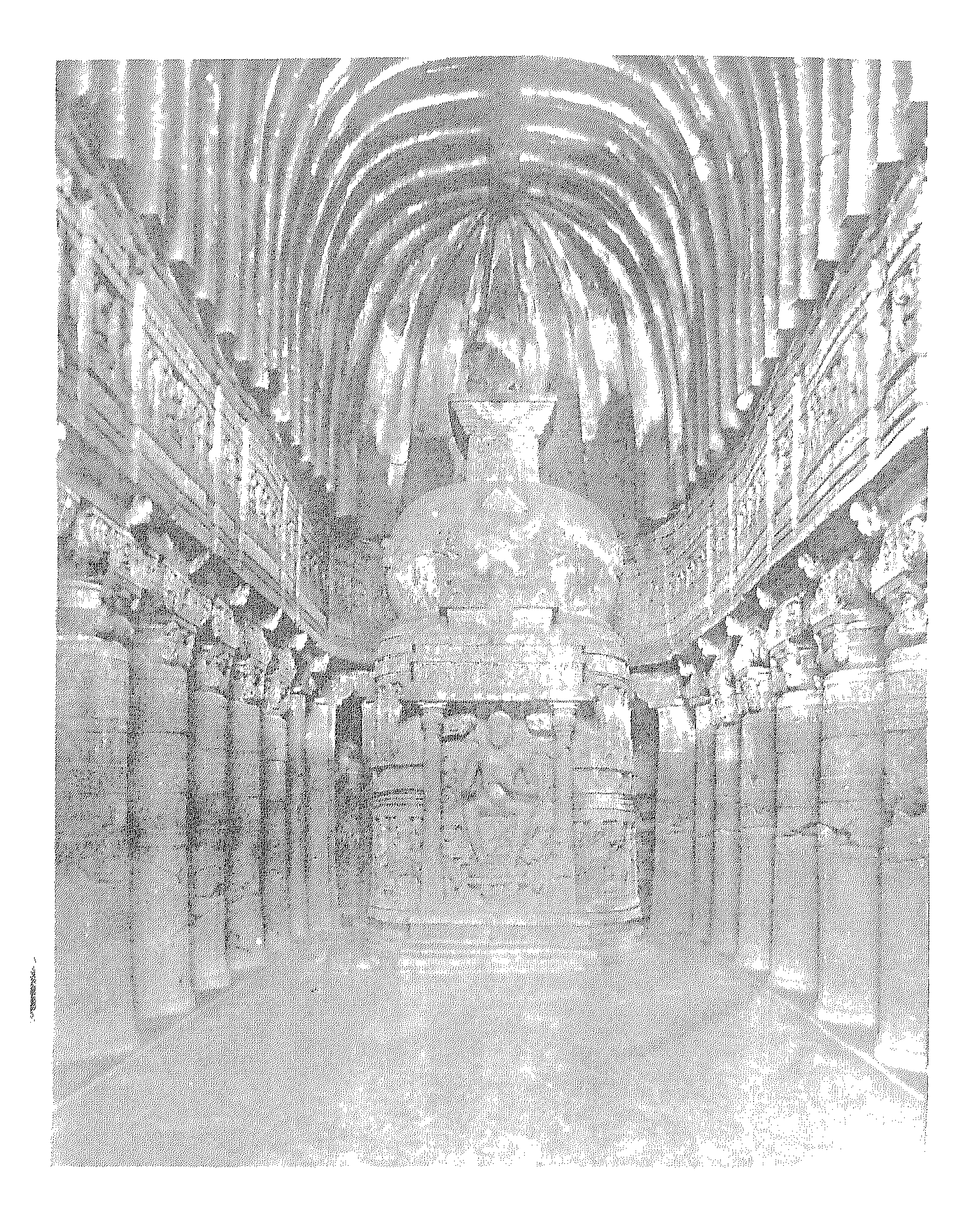
ضفة نهر الجنج بمدينة «بنارس» . الاستحمام ، والعبادة

[أنظر من صفحة ٥٠ حتى صفحة ٦٤]



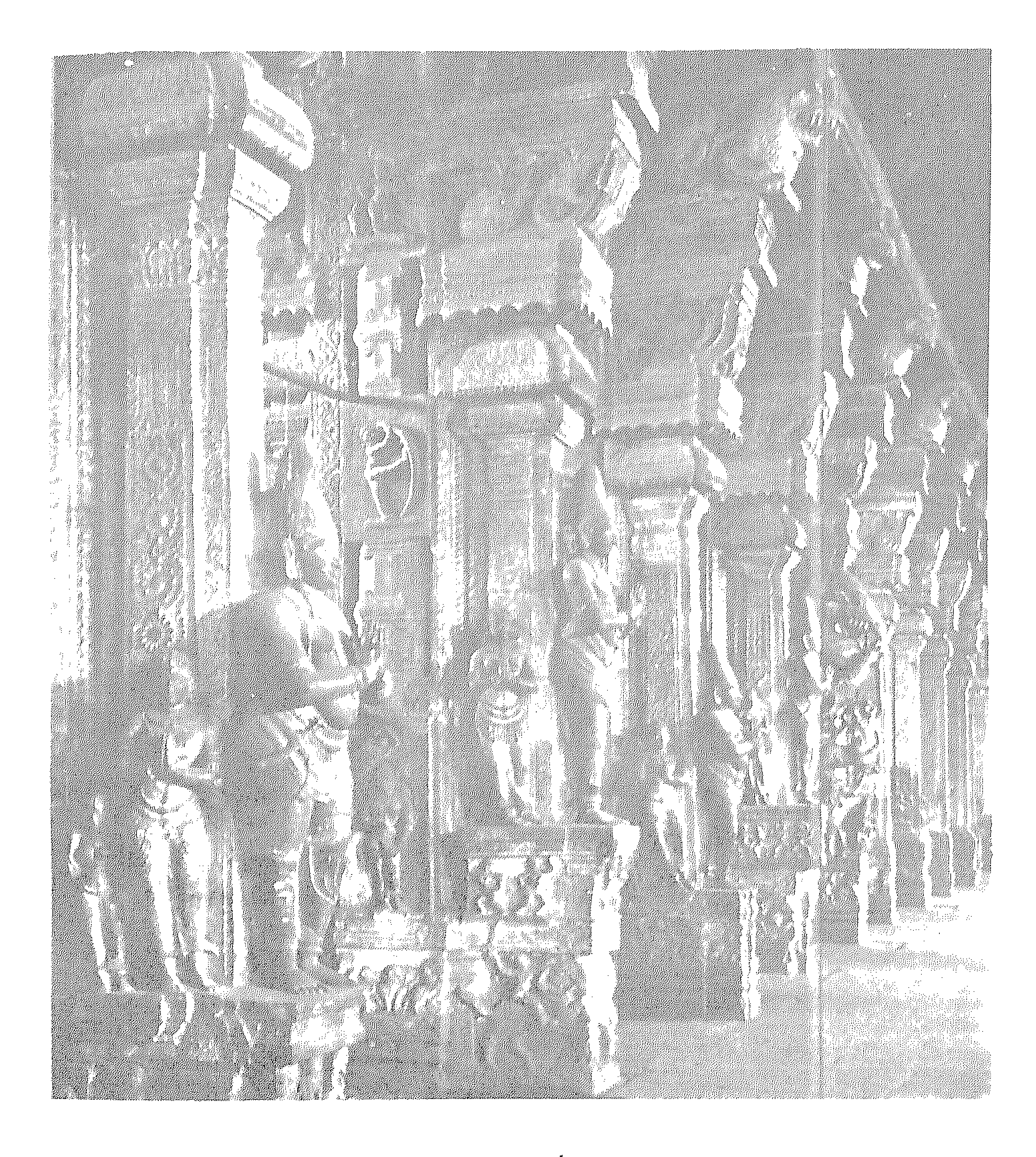
معبد شيفا (كانداريا ماها ديو) بمدينة كاجوراهو. القرن الرابع الميلادى

[أنظر صفحة ٩٣ حتى آخر الفصل]



كهف بوذى من كهوف «أجانتا»

[أنظر صفحة ٩٩ حتى آخر الفصل]



معبد مادوراي ، واحد من أبهاء المعبد الكبير . القرن السابع عشر الميلادى

الفهرست

رقم الإيداع	١٩٧٨/٣٥٩٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٣٢٨ - ٣

٦/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

هذا الكتاب يسجل بعض انطباعات مؤلفه من مشاهدات على ظهر السفينة «مباحث» فى عرض البحر ، وفى الشواطىء التى ارتبطت بها ، كما يطوف بنا خلال تاريخ الهند القديم ، وأثر الأديان المختلفة فى عقائد الهنود وسلوكهم .

كما يقدم نظرات مختلفة فى الفنون والعلوم والطوائف الهندية التى أثرت فى الفكر العالمى . .

٦٠ قرشا